

سلسلة الأعداد الخاصة

د. نبيل فاروق

2

أشهر الجواسيس

أشهر الجواسيس

عبر التاريخ ، كانت لهم بصمات واضحة ..

بصمات ربما لم يرها أحد فى حينها ، ولكنها كانت عظيمة الأثر فى تاريخ البشر كله ..

عاشوا حياة غامضة ..

قاتلة ..

مخيفة ..

وسرية ..

كل منهم عاش فى سبيل ما آمن به ..

وقاتل من أجله ..

ومات ليحميه ..

وعلى الرغم من أن عالمهم السرى لم يسمح لنا بمعرفتهم يومًا ، إلا أنهم كانوا الأبرع والأشهر فى مضمارهم ..

كانوا .. أشهر الجواسيس ..

كافة .

د. نبيل فاروق

المخـادع ..

ãã بين كل صفحاتْ كتاب الجاسوسية ، الذى وضع المصريون القدامى مقدّمته منذ آلاف السنين ويمده العالم كله بمداد لاينتهى ، حتّى يومنا هذا ، وإلى أن يشاء الله (سبحانه وتعالى) لابد ولن تبرز تلك الصفحة ، الخاصة جدًا ، والتى تحمل اسم (فريتز كودرز) ..

فعلى الرغم من أن (كودرز) النمساوى الجنسية ، لم يكن يشبه أية صورة ، يمكن أن تصنعها الأذهان لشخصية الجاسوس ، مع جسده الممتلئ ، وقامته القصيرة ، وشعره المُجعد ، وأنفه الضخم ، وابتسامته اللزجة ..

وعلى الرغم من تاريخه الحافل بصفقات تجارية وهمية ، والكثير من الرشاوى والفساد ، وبيع بطاقات الهوية المزورة ، فإن (كودرز) كان يحمل صفة لا تنافس قط ..

إنه الجاسوس الوحيد ، فى التاريخ كله ، الذى خدع كل أجهزة المخابرات فى عصره ، ثم خرج من كل هذا مثل الشعرة من العجين كما يقولون ..

ولقد بدأ تاريخ (فريتز كودرز) فى عالم الجاسوسية ، مع بدايات عام 1939 م ، وقبل أشهر قليلة من اندلاع الحرب العالمية

الثانية ، عندما التقطه رجل المخابرات الألمانى (تورخول) وراح يتابع سفرياته المتعددة لمعظم دول (أوروبا) واحتيالاته المتقنة فى شتى المجالات ، قبل أن يُرشحه ، وبمنتهى الحماسة ، للعمل تحت رياسته ، فى جهاز المخابرات الألمانى ..

والواقع أنها كانت خطوة جريئة ومدهشة من (تورخول) ، خاصة وأن (كودرز) كان نتاج زواج قصير ، بين أم يهودية وأب كاثوليكى ، أى أنه كان واحدًا من الفئات المطاردة ، والمغضوب عليها بشدة ، فى ذلك العهد النازى ..

ولكن يبدو أن (تورخول) كان موهوبًا فى فن التسويق والإقناع ، فعلى الرغم من هذه المؤاخذة شديدة الخطورة ، تم قبول (كودرز) كعميل المخابرات الألمانية ، وكشخص مؤتمن ، فى الحصول على المعلومات ، من الجبهة السوفيتية ..

الشىء الذى لم ينتبه إليه أحد ، ولا حتى (كودرز) نفسه فى البداية ، هو أن الولاء الحقيقى للثعلب (توخول) لم يكن يتجه إلى النازية ، بأية حال من الأحوال ..

لقد كان ولاؤه بالكامل للمخابرات السوفيتية ..

وهكذا بدأ (كودرز) حياته ، فى عالم الجاسوسية ، كجاسوس مزدوج ، منذ اللحظة الأولى ..

ولقد التقط رجال المخابرات السوفيتية هذا الخيط ببراعة منقطعة النظير ، واجتمع قادتهم لدراسة الأمر ، والبحث عن الوسيلة المثلى للاستفادة من رجل مثل (كودرز) .

ومن المؤكد أن دراساتهم واجتماعاتهم قد استغرقت وقتًا طويلاً للغاية ، إذ إنها لم تنته بإقرار موقف (فريتز كودرز) فحسب ، وإنما بوضع الأسس العريضة لأضخم مؤامرة تجسس سوفيتية ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية كلها ..

وفى المخابرات الألمانية حمل (كودرز) الاسم السرى (ريتشارد كلات) وانطلق لجمع المعلومات ، من كافة دول (أوروبا) ، التى لم تعلن حالة الحرب بعد ، على (ألمانيا) ومواطنيها ..

وكخطوة أولى فى المؤامرة السوفيتية ، وفى سبيل تثبيت أقدام (كودرز) ، فى المخابرات الألمانية ، راح السوفيت يغمرون جاسوسهم بمعلومات عسكرية واقتصادية صحيحة ليقدمها للمخابرات الألمانية ، التى انبهرت بما تحصل عليه ، وسال لعابها لما يأتى به (كودرز) ، حتى إنها اعتبرته جاسوسًا فريدًا ، وأخذت تمنحه الكثير من الأموال والمكافآت ..

ولكن (كودرز) لم يكن يسعى للمال ..

لقد كان له هدف أكثر أهمية وخطورة ألا وهو الحصول على « شهادة انتماء للجنس الآرى .. »

وبالنسبة لرجل نصف يهودى مثل (كودرز) ، فى زمن نازى كهذا ، كانت شهادة الانتماء للجنس الآرى ، والتى تعنى أنه قد تم فحصه ودراسته ، والتأكد من أنه لا يمثل خطرًا على (ألمانيا) النازية ، بمثابة وثيقة أمان وحياة ..

ولكن ما من مسئول واحد ، أمكنه أن يمنحه هذه الشهادة ..

مهما كان ما فعله ..

باختصار ، كان من المستحيل تمامًا أن يحصل عليها شخص له انتماء يهودى ..

أدنى انتماء ..

ولكن المخابرات الألمانية أمكنها أن تعوضه عن هذه الشهادة بمزية أخرى ، وهى منحه بطاقة خاصة ، تسهل تعاملاته مع البوليس السرى النازى (الجستابو) ، الذى كان مجرد ذكر اسمه ، فى تلك الفترة ، يكفى لبث الرعب ، فى قلب أشجع وأقوى الرجال ..

ومع غزارة ودسامة وصحة معلوماته ، صدر قرار بتعيينه رسميًا فى جهاز المخابرات الألمانى ، استثناءً من القانون ، الذى

الذى يحظر انتماء أى شخص من أصول يهودية إليه ، باعتباره على حد قولهم جاسوسًا من ذهب ..

وبناءً على هذا ، طلب (كودرز) من المخابرات الألمانية إرساله إلى (صوفيا) فى (بلغاريا) ، مع جهاز إرسال خاص ، يُتيح له نقل المعلومات مباشرة ، دون الحاجة إلى وسطاء ..

ومنذ بدايات 1942 م ، انهالت المعلومات من (كودرز) ، عبر جهاز الإرسال ، حاملة أدق أسرار السوفيت ، على نحو بالغ الخطورة ، أتاح للجيش الألمانى تحقيق انتصارات تكتيكية رائعة ، أثارت انبهار وإعجاب قادة النازية ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

وأصبح (كودرز) بالفعل جاسوسًا من ذهب ، فى نظر الجميع ..

الأمر الذى لم يخطر بالبال ، أو يتصوّره أحد ، ولو للحظة واحدة ، هو أن السوفيت ، وبقلوب باردة كثلوجهم ، قد قرروا التضحية بكتائب كاملة ، ومعدات غالية ، وعشرات من الجنود والضباط ، فى سبيل وضع جاسوسهم (كودرز) فى موقع مناسب ، يُتيح لهم تحقيق الهدف من المؤامرة ..

وإلى أقصى حد ..

وفى أواخر شتاء 1942 م ، أبلغ (كودرز) المخابرات الألمانية بمعلومات بالغة الخطورة ، تقول : إن السوفيت سيهاجمون الجيش

السادس الألمانى فى (ستالينجراد) ، وأن لديهم أوامر صارمة من (ستالين) نفسه بالصمود إلى أقصى حد ممكن ، مهما كان الثمن ..

وتدعيمًا للمعلومة ، أرسل (كودرز) عدد الوحدات العسكرية السوفيتية المشاركة فى الهجوم ، وخطة إرسال بعض الوحدات العسكرية المحمولة ليلاً ، عبر نهر (الفولجا) ، وأسماء الجنرالات المسئولين عن مهاجمة وطرد الألمان من المدينة ..

وكل هذا بناءً ـ حسب قوله ـ على معلومات ترد إليه ، من مصادر متصلة بكبار قادة السوفيت ، وتمتد إلى (ستالين) نفسه ..

وكانت هذه واحدة من أبرع النقاط ، فى هذه المؤامرة السوفيتية ، فعلى الرغم من أن المعلومات كانت صحيحة ودقيقة تمامًا ، فإنها أغفلت الإشارة إلى أن الهجوم السوفيتى لم يكن يستهدف ضرب الجيش الألمانى السادس مباشرة ، ولكن إلى القيام بحركة التفاف ضخمة ، لضرب شرق وغرب (ستالينجراد) ، وتحطيم الجبهات الهنجارية والرومانية الضعيفة ، المتحالفة مع الألمان ، ثم حصار وتطويق الجيش الألمانى السادس ..

وخلال شهر واحد من الحصار ، انهارت مقاومة الجيش السادس ، وقوامه ربع مليون ألمانى ، واستسلم من تبقى منهم للجيش السوفيتى ، الذى حقق واحدًا من أعظم انتصاراته ، عبر تاريخ الحرب ..

ومع تلك الهزيمة الساحقة ، تصاعدت بعض الأصوات ، التى تعبر عن الشك فى ولاء (فريتز كودرز) ، وفى انتماءاته الألمانية ، بل واتهمه البعض صراحة بأنه جاسوس سوفيتى ..

ومرة أخرى تجلت براعة المخابرات السوفيتية ، وحنكة وموهبة (تورخول) ، الذى أقنع الجميع بأن المعلومات التى أرسلها (كودرز) سليمة تمامًا ..

وأن الخطأ يكمن فيمن قاموا بدراستها وتحليلها ..

ولأن التفسير كان منطقيًا للغاية ..

ولأن (تورخول) كان ثعلبًا فى مضماره ، فقد أمكنه أن يكسب الجولة ، وأن يُحافظ على الثقة ، التى تمنحها المخابرات الألمانية لعميلها (كودرز) ..

وقد استمرت هذه الثقة ، حتى عام 1944 م ..

ففى هذا العام ، أبلغ (كودرز) المخابرات الألمانية أن القيادة العليا السوفيتية قد اتخذت قرارًا بالقيام بهجوم عسكرى ضخم ، يستهدف تشتيت الجيش الألمانى فى جنوب (أوكرانيا) ..

وبناءً على هذه المعلومة الخطيرة ، ونظرًا للدقة المعهودة فى كل ما يرسله (كودرز) ، حشدت (ألمانيا) قواتها فى جنوب (أوكرانيا) ، استعدادًا لصد الضربة السوفيتية القاصمة ..

ثم وقع الهجوم السوفيتى ..

ولكن ليس فى الجنوب ..

لقد هوى كالصاعقة على الجبهة الوسطى من الجيش الألمانى ، على بُعد أكثر من ستمائة كيلو متر من الهدف المتوقع ..

وكانت صاعقة مدمرة بحق ..

نصف مليون جندى ألمانى لقوا مصرعهم ، فى هذا الهجوم ..

أنهار من الدم الروسى سالت على الثلوج السوفيتية .

وانكسر وسط الجيش الألمانى ..

انكسر ، حتى إنه لم تقم له قائمة أخرى حتى شق السوفيت طريقهم إلى قلب (برلين) فيما بعد ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يُعاد تقويم موقف (كودرز) بأكمله ..

ومع المراجعة الدقيقة المتخصصة ، راحت عشرات الحقائق تتكشف على نحو مُخيف وغير متوقع ..

فالتقارير تقول إن (كودرز) يقوم بعمليات تجارية وصفقات مشبوهة طوال الوقت من تحت أنف السلطات الألمانية ..

طبيعته اليهودية غلبته ، ودفعته إلى تقديم عشرات الرشاوى للسلطات الأمنية الهنجارية ، للتجاوز عن أعماله غير المشروعة ..

ثم انتبهت بعض العقول المتفتحة إلى أمر سبقتها إليه عقول مكتب المخابرات البريطانى ، منذ عامين على الأقل ..

فالمعلومات التى حصل عليها الألمان عن طريق (كودرز) ، ساعدتهم فى توجيه عشرات الضربات فى الماضى للقوات السوفيتية ، على نحو كان لابد وأن يستفزّ السوفيت ويرشدهم فى وضوح إلى وجود ثغرة كبيرة فى أجهزتهم الأمنية ، تتسرب منها المعلومات على نحو مُخيف ..

والعقول السوفيتية ، التى تربت على الخداع والتآمر ، كان باستطاعتها التوصل إلى هذه النقطة فى سهولة ..

وعلى الرغم من هذا ، فإن أحدًا لم يبد اهتمامًا أو قلقًا فى هذا الشأن !!

فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

إنه يعنى وبكل وضوح ، أن السوفيت كانوا ، على نحو آخر ، يعلمون بأمر تسرب المعلومات هذا ..

بل ويرتاحون إليه ..

وهكذا ، وبناءً على تلك المعلومات والاستنتاجات الخطيرة ، قرر رجال المخابرات الألمانية أن (كودرز) جاسوس سوفيتى ..

وصدر حكم بالقضاء عليه فورًا ..

ولكن يبدو أن العوامل كلها كانت تتضافر لإنقاذ (فريتز كودرز) ..

ففى الوقت الذى صدر فيه هذا القرار ، حدثت محاولة اغتيال (هتلر) الفاشلة ، فى يوليو 1944 م ..

وبعد نجاته من محاولة الاغتيال ، التى اشترك فيها مسئولون بجهاز المخابرات الألمانى ، أصدر (أدولف هتلر) قراره بحل وإسقاط جهاز المخابرات الألمانى ، وبأن يتولى جهاز المخابرات النازى سلطاته ويحل محله ..

ومع سقوط المخابرات الألمانية .. سقط معها ملف (كودرز) كله ..

والعجيب ، أن جهاز المخابرات النازى قد احتضن (كودرز) ، واعتبره جاسوسًا فريدًا ، وتم نقله إلى مكتب المخابرات فى (هنجاريا) كوسيلة للتحايل على القانون ، الذى يحظر تعيين كل من ينتهى إلى أصول يهودية فى جهاز المخابرات ..

ولكن الأمر بلغ (هتلر) نفسه ..

وفى غمرة غضبه ، أصدر الفوهلر الألمانى قرارًا باعتقال (كودرز) ..

وارتبك رجال المخابرات النازية ، الذين ما زالوا يتصوّرون أن (كودرز) من أفضل جواسيسهم ..

واحتاج الأمر إلى تدخل الجنرال (هانز جودريان) ، رئيس الأركان العامة بنفسه ، لتحويل الأمر من الاعتقال إلى التحفظ المحدود ، فى أحد السجون العسكرية الألمانية كوسيلة للحفاظ على حياة (كودرز) فحسب ..

وفى مايو 1945 م ، وعندما بدأت (ألمانيا) مرحلة الانهيار الفعلى ، فوجئ (كودرز) بزيارة من آخر شخص يتوقع رؤيته ..

(تورخول) ..

ودون أن يلقى (كودرز) سؤالاً واحدًا ، تبع (تورخول) إلى خارج السجن ، واستقل معه سيّارة خاصة إلى (النمسا) ، وهناك أبلغه رجل المخابرات الألمانى أن الحرب قد أوشكت على نهايتها ، وأن عليهما الفرار من وجه الزحف الأمريكى السوفيتى ، بأى ثمن كان ..

وفى (النمسا) ، افترق الرجلان ..

وكانت آخر مرة يرى فيها أحدهما الآخر ..

وسقطت (ألمانيا) بالفعل ..

استسلم جيشها ، وانتحر قائدها ، وانهزم جنرالاتها ..

ومرة أخرى ، ألقى القبض على (كودرز) ..

وفى هذه المرة ، أصبح فى قبضة الأمريكيين ، الذين اعتبروه جاسوسًا نازيًا بالغ الخطورة ..

وهنا أثبت (كودرز) أنه ثعلب حقيقى ..

وربّما أكثر من (تورخول) نفسه ..

فهو لم ينجح فى إقناع الأمريكيين بإطلاق سراحه فحسب ، وإنّما جعلهم يسندون إليه بعض المهام الخاصة بخداع المخابرات السوفيتية أيضًا ..

ووقع السوفيت فى الخدعة ..

وتعاملوا مع (كودرز) باعتباره رجلهم ، فى حين اقتنص هو معلوماتهم ، وقدّمها على طبق من ذهب للأمريكيين ..

وكان (تورخول) هو أول من كشف هذا الأمر ، وأبلغه للسوفيت ، الذين جنّ جنونهم ، وقرروا الانتقام من (كودرز) بأى ثمن ..

وفى فبراير 1946 م ، قامت مجموعة من رجال المخابرات السوفيتية ، يرتدون ثياب رجال البوليس الأمريكى ، بمحاولة لاختطاف (كودرز) فى قلب (فيينا) ..

ولكن المحاولة باءت بالفشل ..

فبوسيلة ما عرف رجال المخابرات الأمريكية بأمر الخطة ، قبل ساعة واحدة من موعدها ، فتدخلوا فى الوقت المناسب لإحباطها ..

وتم إنقاذ (كودرز) بأعجوبة ..

وعلى الرغم من نجاته ، فقد التقط (فريتز كودرز) الرسالة ، وفهم مضمونها بمنتهى الذكاء ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، وعلى الرغم من إحاطته بحراسة قوية ، اختفى (كودرز) تمامًا !

لا أحد يدرى كيف أمكنه ، بقامته القصيرة ، وجسمه الممتلئ ، الإفلات من رجال الحراسة المحترفين ، ولكن يبدو أن الجميع قد انشغلوا بمنع أى شخص من الوصول إليه حتى أنهم لم يتخذوا أية احتياطات لمنعه هو من الفرار !

واشتعل غضب الطرفين ، الأمريكيين والسوفيت ، وراح كلاهما يبحث عن الجاسوس المختفى ، الذى لم يظهر له أدنى أثر ، وكأنّما انشقت الأرض وابتلعته ، أو تلاشى من الوجود تمامًا ..

وبعد أن فشلت كل المحاولات ، وعجز الجميع عن العثور عليه ، ظهر (كودرز) بغتة فى (فيينا) ليعرض خدماته على جهاز المخابرات الأمريكى ..

وفى هذه المرة ، قوبل طلبه بالرفض التام ، واتخذ المسئول بعض الخطوات الحذرة ، للإيقاع به واستجوابه ، و ...

ولكن (كودرز) اختفى مرة أخرى بغتة ، قبل أن يصل رجال الأمن .

وكان اختفاؤه أكثر غموضًا وأثار الحيرة هذه المرة .. ولم يتقبل الأمريكيون الأمر بسهولة ..

لقد انطلقوا فى غضب هادر ، يقلبون الأرض شبرًا شبرًا ، بحثًا عن ذلك الجاسوس البدين ، الذى يخدع الجميع بمنتهى اليسر والسهولة ، وكأنّما يلهو فى حضانة أطفال بسيطة ..

ولكن (كودرز) حقق المعادلة الصعبة ، واختفى تمامًا فى هذه المرة أيضًا ، كما لو أنه لم يوجد من قبل قط ..

وجه صفعة جديدة لجهاز مخابرات جديد ، واختفى من الوجود تمامًا ..

حتى يومنا هذا ..

فعلى الرغم من كل المحاولات السوفيتية والأمريكية ، والبريطانية أيضًا ، لم يتم العثور على أثر واحد له ..

وكانت هذه أكبر وأقوى مؤامرة فى تاريخه ..

المؤامرة التى جعلت منه جاسوسًا فريدًا ..

وغامضًا ..

إلى الأبد .

★ ★ ★

الأول ..

اسمه كان أول اسم ، يقفز إلى الأذهان ، عندما يتعلق الأمر بمهمة من أعمال المخابرات الألمانية ، فى أوروبا الشرقية ، إبان الحرب العالمية الثانية ..

وبالذات المهام الصعبة ..

أو المستحيلة !

وبالذات أيضًا تلك التى تدور فى قلب (روسيا) ..

هذا لأنه كان واحدًا من أقوى رجال المخابرات الألمانية ، وأكثرهم حنكة وذكاءً ، فى تلك الفترة ..

إنه (جهلن) ..

(راينهارت جهلن) ..

(أدولف هتلر) نفسه كان يثق به ثقة عمياء ، ويسند إليه أية مهمة ، يرد فيها ذكر (روسيا) ، ولو من بعيد ..

وكان يعدّه ليصبح رئيس جهاز المخابرات الألمانى ..

ولكن .. ليس كل ما يتمناه المرء يُدركه ..

لقد خسرت (ألمانيا) الحرب العالمية الثانية ، وأطبق عليها الحلفاء من كل جانب ، وشطروها إلى شطرين ، استولت (روسيا) على الشرقى منهما ، وتركت النصف الغربى لقوات (إنجلترا) و (فرنسا) و (أمريكا) ..

وبدأت حرب جديدة ، بين المعسكرين الغربى والشرقى ، أطلق عليها الخبراء ورجال الصحافة اسم (الحرب الباردة) ، وهى تلك الحرب ، التى لا يستخدم الطرفان فيها ، الأسلحة النارية ، بقدر ما يستخدمان ألعاب الجاسوسية ، واستغلال الحقائب والحصانة الدبلوماسية ..

وكأى مرحلة جديدة ، بدأت محاولات البحث عن عناصر قوية ، تُفيد أحد الجانبين ، وتعاونه فى الحصول على المعلومات السرية من منافسيه ..

وهنا برز اسم (راينهارت جهلن) ..

وكان (جهلن) قد سقط فى أيدى الأمريكيين ، بعد صراع طويل ، أثبت خلاله مهارته وكفاءته ، وقدرته على المراوغة والمناورة والقتال ، ودفع الأمريكيين إلى التفكير جديًا فى الاستعانة به ، وبخبراته الطويلة ، للتجسس على السوفيت ..

وذات ليلة ، من ليالى ديسمبر 1945 م ، أيقظ بعضهم (جهلن) من رقاده ، وحمله إلى حجرة مدير المخابرات المركزية الأمريكية ، التى لم تكن بعد أكثر من جنين يتكوّن ، ويستعد للإعلان عن نفسه ، وسط العالم الجديد ..

ولنصف ساعة كاملة ، بقى (جهلن) وحيدًا فى الحجرة ، يتطلّع إليها فى حذر ، ويُدير عينيه فيها فى بطء ، فى حين كان مدير المخابرات الأمريكى ، وثلاثة من معاونيه يُراقبونه ، من خلف مرآة مزدوجة ، تسمح بالرؤية من أحد جانبيها ، وتعكس الصورة من الجانب الآخر ..

جانب (جهلن) بالطبع ..

ثم توقّف بصر (جهلن) عند المرآة ، وانعقد حاجباه الرفيعان ، وهو يتأملها فى اهتمام شديد ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة باهتة ، جعلت مدير المخابرات الأمريكى يغمغم :

ـ لقد كشف أمرها .. إنه ثعلب حقيقى .

نطقها فى مزيد من الضيق والدهشة ، قبل أن يُغادر موقعه ، ويتجه إلى حجرته ، ويواجه (جهلن) مباشرة ، وهو يقول فى برود :

ـ كيف حالك يا (جهلن) ؟

أجابه (جهلن) فى هدوء مُثير :

ـ كيف تتوقع الجواب ؟ هل أخبرك بالحقيقة ، أم أقول إننى فى خير حال ؟

تجاهل المدير الأمر كله ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هل تعلم عقوبة العمل لحساب النازية ؟

ابتسم (جهلن) ، وأجاب بلهجة شبه ساخرة ؟

ـ كلاً ، فآخر ما أذكره هو المزايا ، التى كان يتمتّع بها من يعمل لحسابها .

التقط المدير ملفًا ضخمًا وتظاهر بتقليب أوراقه ، ومُطالعة محتوياته ، قبل أن يقول فى لهجة قاسية :

بالنسبة لملفك هذا ، وما تضمّنه من وقائع ، فأقل حكم ينتظرك هو حكم بالإعدام يا رجل .

قال (جهلن) فى هدوء :

ـ ولكنك مستعد للمساومة .. أليس كذلك ؟

تطلّع إليه المدير فى دهشة ، وأيقن فى أعماقه أنه يواجه ثعلبًا ماكرًا ؛ لذا فقد تجاوز كل الخطوات التقليدية ، التى لقّنه إياها

خبراء المخابرات البريطانية ، وقفز إلى الخطوة التالية مباشرة ، وهو يسأل (جهلن) بغتة :

ـ ما الذى تعرفه عن السوفيت يا (جهلن) ؟

أجابه الرجل فى خبث :

ـ الكثير .. ولكن هذا يتوقّف على الثمن ، الذى يمكنكم دفعه ، مقابل ما لدىّ .

تراجع المدير فى مقعده ، وبدا على وجهه الارتياح ، عندما اتخذت اللعبة هذا الطريق المباشر ، وسأل (جهلن) :

ـ ماذا لديك بالضبط ؟

أجابه (جهلن) ، بنفس الأسلوب المباشر :

ـ طن من الوثائق السرية ، تحوى أدق أسرار السوفيت ، جمعتُها فى أثناء عملى واحتفظت بها احتياطيًا .

هزّ المدير رأسه ، ودرس الأمر فى سرعة ، وهو يواجه أخطر رجل مخابرات ، قابله فى حياته كلها ، ثم قال بغتة :

ـ ما رأيك فى العمل لحسابنا يا (جهلن) ؟

كان السؤال مفاجأة حقيقية لـ (راينهارت جهلن) ؛ فلم يكن يتوقّع الدخول فى المساومة ، على هذا النحو السريع المُباغت المباشر ، ولكنه شعر بضرورة التعامل بالنسق نفسه ، فسأل فى سرعة :

ـ كيف ؟ وأين ؟

وابتسم المدير ..

لقد بدأت اللعبة ..

وفى فبراير عام 1946 م ، عاد (جهلن) إلى (ألمانيا) ، واستقرّ فى (بلاخ) ، بالقرب من (ميونخ) ، ومعه تفويض تام من المخابرات الأمريكية ، بإقامة أكثر شبكة تجسس ، فى (ألمانيا الشرقية كلها) ، وميزانية رهيبة ، لم يحظ بها جاسوس واحد ، فى العالم أجمع ، إذ بلغت مائتى مليار من الدولارات ، أى ما يزيد على ميزانية دولة كبرى ، فى ذلك الحين ..

وأثبت (جهلن) أنه يستحق ما حصل عليه ؛ فقد كان بحكم تكوينه النازى يبغض الشيوعية بُغضًا تامًا ، مما جعله يعمل فى حماس شديد ، ويُقيم أكبر وأضخم ، وأقوى شبكة جاسوسية عرفها العالم ، فى التاريخ الحديث ..

بل كانت تفوق المخابرات المركزية الأمريكية نفسها ؛ إذ حوت أكثر من أربعين قسمًا من أقسام التجسس ، وأنشأت وأدارت

عددًا ضخمًا من الشركات الوهمية ، فى مختلف دول العالم ، كما تعاونت معها أجهزة المخابرات الأمريكية تعاونًا وثيقًا ، برز كأقوى ما برز ، فى عملية أطلق عليها الأمريكيّون اسم (شبكة الهاتف) ..

ففى عام 1955 م ، وبينما كان الأمريكيون يُقيمون محطة كبرى للرادار ، فى (رودو) بـ (ألمانيا الشرقية) ، قامت منظمة (جهلن) ، بالتعاون مع المخابرات الأمريكية ، بحفر وتركيب شبكة هاتف ضخمة ، بلغ طولها ما يقرب من ستمائة كيلومتر ، للتجسس على شبكة الهاتف الدولية الرئيسية ، فى (ألمانيا الشرقية) ، دون أن ينتبه السوفيت إلى أن هذا الفريق من العمال ، الذى انهمك فى الحفر ، وفى حمل ملايين الأطنان من التراب ، بوساطة عربات شحن ضخمة ، كان كله من رجال (جهلن) المتنكرين ، الذين يعاونهم رجال المخابرات الأمريكية ، الذين زوّدوا الشبكة السرية بأجهزة تسجيل فائقة الحساسية ، يمكنها التقاط وتسجيل (432) محادثة هاتفية فى آن واحد ..

وطوال الشهور التسعة التالية ، التقط الأمريكيّون كل المحادثات الهاتفية الدولية ، من (ألمانيا الشرقية) ، وإلى جميع دول العالم ..

وبالذات إلى (الاتحاد السوفيتى) ..

ولكن الدنيا لا تسير أبدًا على وتيرة واحدة ..

والنجاح لا يدوم ..

ففى الثانى والعشرين من أبريل عام 1956 م ، وبالمصادفة البحتة ، أوقف الملازم (أندريه ميلانوفيتشى) سيّارة الشرطة ، التى يتنقل بها ، فى نفس المنطقة ، التى تختفى تحتها حجرة التنصت الرئيسية للشبكة ، واشعل سيجارته ، وراح ينفث دخانها فى بطء ، متطلعًا إلى الشمس الغاربة ، و ...

وفجأة أثار انتباهه أمر عجيب ..

كان الجليد ينتشر فى المنطقة كلها ، فيما عدا بقعة واحدة ، يذوب عنها الجليد فى سرعة ، على نحو مُثير للدهشة والحيرة ..

وفى حذر ، اقترب (ميلانوفيتشى) من تلك البقعة ، وراح يتحسسها فى اهتمام ، وتضاعفت الدهشة فى أعماقه ، عندما لاحظ أنها دافئة ، على عكس الطبيعى ، فى ذلك الطقس الشديد البرودة .

وبسرعة ، أبلغ (ميلانوفيتشى) الأمر لرؤسائه ، الذين أجروا أبحاثهم حول المكان ، ثم أطبقوا عليه فى شراسة ..

وانكشف الأمر ..

كان الجليد يذوب بفضل أنابيب التدفئة ، المختبئة فى جدران حجرة التنصت الرئيسية بالشبكة ..

وألقى السوفيت القبض على أفراد الشبكة كلهم ، فيما عدا (جهلن) ، الذى اختفى تمامًا ، ولم يظهر له أدنى أثر ..

وأنكر الأمريكيون أية صلة لهم بالشبكة ، أو بـ (جهلن) ، وأعلنوا هذا رسميًا ، على الرغم من ثورة السوفيت وإصرارهم ..

ونشط الفريقان ، فى البحث عن (جهلن) ..

السوفيت يُريدون الانتقام منه ، لما حصل عليه من أسرارهم ..

والأمريكيّون يُريدون الحصول على الوثائق الجديدة ، التى حصل عليها من السوفيت ..

ولكن السنوات مضت ، دون أن يظهر (راينهارت جهلن) ..

اختفى الثعلب ، الذى خدع الجميع ، تاركًا خلفه شائعات لا تنتهى ..

البعض قال : إن السوفيت ألقوا القبض عليه بالفعل ، وأعدموه ، ولكنهم أخفوا هذا ، حتى لا يُطالبهم الأمريكيّون به ، أو يُدركوا أن وثائقهم عادت إليهم ..

أما البعض الآخر ، فأكّد أنه استولى على عشرة مليارات من الدولارات الأمريكية ، وابتاع جزيرة فى المحيط الهادى ، منتحلاً اسم (جون دو) ..

وآخرون أصرّوا على أنه يختفى ، فى مكان ما فى (ألمانيا الغربية) ، لينشئ منظمة أخرى ، تعمل على عودة النازية إلى العالم مرة أخرى ..

وكلها مجرّد شائعات ..

لقد اختفى (راينهارت) تمامًا ، وغادر (ألمانيا) ..

أو عاد إليها ..

من يدرى ؟!

★ ★ ★

الأستاذ ..

من بين كل الجواسيس الذين عرفهم التاريخ ، يحتل هذا الرجل بالذات مكانة خاصة للغاية ، لا ينافسه أو يدانيه فيها أحد .

إنه صاحب شخصية فريدة مُبهرة ، وثقافة واسعة ، وذكاء مفرط ، وجرأة وبراعة اقتربتا من حد الكمال ..

أما عن دقته ، وطبيعته القيادية المدهشة ، التى أهلته لقيادة وإدارة أقوى وأنجح وأكمل شبكات الجاسوسية ، داخل (الصين) و (اليابان) خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد احتل مكانته المتميزة الخاصة هذه ؛ لأنه الجاسوس الوحيد ، فى التاريخ كله ، الذى كان لنجاحه الفضل فى تغيير مسار الحرب العالمية الثانية ..

إنه (ريتشارد سورج) ..

و (ريتشارد) هذا هو الابن الثانى لمهندس ألمانى ، من العاملين فى حقوق البترول الخاصة بالإمبراطور والذين يُبالغون فى إظهار ولائهم له ، وربّما كان لتلك المبالغة ما يبررها ، عند هذا الرجل بالذات ؛ إذ كان والده (جد ريتشارد) هو (أدولف سورج) ، السكرتير الخاص للمفكر (كارل ماركس) ، وأحد

الذين اعتنقوا الشيوعية منذ مولدها ، وهو الذى ألحق (ريتشارد) بإحدى الفرق العسكرية القيصرية ، إبان الحرب العالمية الأولى .

ولم يرق هذا قط للشاب (ريتشارد) ، الذى لم يكن قد بلغ التاسعة عشرة من عمره بعد ، فقد كان يميل لدراسة العلوم السياسية ، ويعتبر القتال المباشر نوعًا من الحماقة والتهور ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أبلى بلاءً حسنًا فى المعركة ، وقاتل ببسالة مدهشة ، حتى أصابته رصاصات مدفع آلى فرنسى فى ساقه ، مما تحتم معه نقله إلى المستشفى للعلاج ، فى الخطوط الخلفية ..

وكانت فترة العلاج فرصة مناسبة للغاية ، بالنسبة لطموح الشاب ، فقد عاود دراسة العلوم السياسية فى فراش المرض ، بل ونجح فى اجتياز الصف الدراسى الأوّل بنجاح ساحق ..

وأعيد (ريتشارد) مرة أخرى إلى الجبهة ، وإلى القتال ..

وفى هذه المرة ، أصابته شظية من قنبلة إنجليزية ، فأعيد إلى الخطوط الخلفية للعلاج .. وللدراسة أيضًا ..

وقبل أن ينتهى من فصله الدراسى الثانى ، تم إرساله إلى الجبهة الروسية هذه المرة ، حيث أصابه جرح ثالث ، اعتبر بعده غير لائق للخدمة ، وتم تسريحه من الجيش ..

ووجدها الشاب فرصة مناسبة لاستكمال دراسته فى العلوم السياسية ، خاصة وقد جذب انتباهه ما يحدث فى (روسيا) ، فى تلك الآونة ..

ففى ذلك العام 1917 م ، كان التذمر قد بلغ أوجه ، بين أوساط الفلاحين والعمال فى (روسيا) ، بسبب الحكم القيصرى الديكتاتورى ، وتدخل (راسبوتين) ، الراهب الداعر فى شئون الدولة ؛ لذا فقد أعلن العمال العصيان والإضراب ، واستولوا على العاصمة ، وأقاموا فيها حكومة مؤقتة ، ثم لم تلبث الأمور أن تطورت فى سرعة ، وتنازل القيصر عن العرش ، ووصل البلاشفة إلى الحكم بزعامة (لينين) ، ورفض الشعب مواصلة الحرب ، فتم عقد صلح مع (ألمانيا) ..

كل هذا أثار اهتمام (ريتشارد) بشدة ، مع معرفته بتاريخ جده (أدولف) ، ولكن هزيمة (ألمانيا) أزعجته وآلمته ، وجعلته يبغض الحروب أكثر وأكثر ..

وأكمل (ريتشارد سورج) دراسته ، فى جامعات (كبيل) و(هامبورج) ، حتى حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية عام 1920 م .

وفى اليوم نفسه ، وقبل أن يجف حبر شهادة الدكتوراه ، كان (سورج) يملأ استمارة الالتحاق بالحزب الشيوعى الألمانى فى

(هامبورج) ، ليصبح أحد أعضائه العاملين ، والمتحمسين كثيرًا للسياسة الجديدة ، التى تنطلق من (موسكو) ..

وبسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، فى ذلك الحين ، اضطر (سورج) لقبول وظيفة بسيطة كمدرس للمرحلة الابتدائية ، حيث حوّل حصصه الدراسية إلى محاضرات لبث الفكر الشيوعى فى عقول الأطفال ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يفقد (سورج) وظيفة التدريس التى قبلها على مضض ..

ولأن سمعته سبقته ، إلى كل مكان ذهب إليه ، فلم ينجح الشاب حامل شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية ، إلا فى الحصول على عمل حقير فى أحد مناجم الفحم ، ومنزل أكثر حقارة فى أسوأ أحياء (هامبورج) ..

وتكرر ما حدث وتم طرد (ريتشارد سورج) من أعمال المناجم ..

وفى غضب مرير ، راح (سورج) يقطع شوارع (هامبورج) وعندما بلغ منزله الصغير ، مع منتصف الليل ، كانت فى انتظاره مفاجأة ..

لقد كان هناك رجل قوى البنية ، صارم الملامح ، أمام منزله بالضبط ..

ولقد تعرّف (سورج) على ذلك الرجل ..

وامتلأت نفسه بالقلق ..

فذلك الرجل ، لم يكن سوى (هنرى تولمان) رئيس شرطة الحزب السرية فى (هامبورج) الذى اشتهر بقسوته وصرامته ، وبأنه الرجل ، الذى يمكنه أن يكسر عنق رجل بيمناه ، فى نفس الوقت الذى يُدخن فيه سيجارًا فاخرًا بيسراه ..

وفى برود شديد ، تطلّع (تولمان) إلى (سورج) ، وأخبره أنه يُريد التحدث معه ..

وداخل المنزل الحقير ، وبكلمات مقتضبة موجزة ، أبلغ (تولمان) أن (موسكو) تهتم كثيرًا به ، وتُتابع حماس حفيد (أدولف سورج) بعين راضية ، ثم طلب منه إعداد نفسه للسفر إلى (موسكو) ..

ولا أحد يمكنه أن يتصوّر فرحة (سورج) وسعادته فى تلك الليلة ، التى لم يذق خلالها طعم النوم ، وهو يحلم بعينين مفتوحتين بالسفر إلى العاصمة الحمراء ، والعمل لحساب (سادة المستقبل) ، كما أطلق عليهم حينذاك ..

وسافر (ريتشارد سورج) إلى (موسكو) وهناك التقى بأحد المسئولين الكبار ، فى اللجنة المركزية لجميع الأحزاب الشيوعية

الأجنبية (الكومنترون) ، والذى رحب به فى حفاوة ، وشرح له أن الحزب يحتاج إلى تعاونه ، ثم سلمه بعدها إلى (ديمترى مانولسكى) ، رئيس قسم المخابرات الأجنبية فى (الكومنترون) ليوضح له طبيعة مهمته ..

وفى المقابلة الأولى ، لم يشعر (مانولسكى) بالارتياح كثيرًا تجاه (سورج) فقد بدا له هذا الأخير شديد النحول ، جامد الملامح ، حاد النظرات على نحو يبدو وكأنه يغوص فى أعمق أعماقه بلا هوادة ..

ولكن الشاب نجح ، وبتفوق مذهل ، فى كل الاختبارات الأولية ، التى أخضعه لها (مانولسكى) بكل خبرته وحنكته ، مما جعله يشعر بشىء من الإعجاب تجاهه ، ويزيح كل مشاعر عدم الارتياح السابقة جانبًا ، ليتولى بنفسه تدريب وإعداد (ريتشارد سورج) ليصبح واحدًا من العديدين ، فى ذلك العالم الغامض المثير ..

عالم الجاسوسية ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل ..

لقد استغرق خمس سنوات كاملة ، من العمل والتدريب ، والقيام بعشرات المهمات الصغيرة البسيطة ، ثم تطويرها شيئًا

فشيئًا ، حتى حذق (سورج) الأمر ، وخبره ، وصار واحدًا من تلك الفئة القليلة ، التى يمكننا أن نُطلق عليها اسم (جاسوس كفء) ..

ولا أحد يمكنه أن يُنكر موهبة (سورج) نفسها ، فى هذا الشأن فلم تمض تلك السنوات الخمس ، حتى صار خبيرًا لا يشق له غبار ، فى هذا المضمار ، كما تحول لجامعة شاملة ، فى العلوم واللغات ؛ إذ أجاد ، وبطلاقة تامة ، إلى جوار لغته الألمانية ، الإنجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، واليابانية ، مع عدد لا بأس به من اللهجات الصينية .

وفى وضوح ، أفهمه (مانولسكى) أن مهمته الأولى هى جمع المعلومات السياسية ، من كل مكان يذهب إليه ، ومعرفة ردود الأفعال العالمية ، تجاه التطورات الاجتماعية والاقتصادية السريعة والعنيفة ، التى تحدث فى الاتحاد السوفيتى ، والتى يتابعها الجميع فى قلق وحرص وحذر ، كما حذره من إعلان ميوله الشيوعية ، أو حتى الإشارة إليها ، بل والتظاهر بمعارضتها ، والاختلاف معها تمام الاختلاف ..

ولم يكن (سورج) بحاجة فعلاً إلى كل هذه النصائح ، بعد كل ما تلقاه من دروس وتدريبات ، ولكنه استمع إلى (مانولسكى) بكل هدوء واحترام قبل أن يبدأ جولته الأولى ، فى ربوع (أوروبا) لجمع ودراسة ردود الأفعال تجاه ذلك الزحف الشيوعى الجديد ..

ولما لم تكن هناك أية وسيلة تُتيح له نقل المعلومات فى لمح البصر ، ومواكبة الأحداث لحظة بلحظة ، كما يحدث الآن ، فقد تحولّ إلى آلة استماع ومتابعة ، وتخزين وتحليل معلومات لا نظير لها ..

وانبهر رؤساؤه فى (موسكو) ، بذلك السيل المنهمر من المعلومات ، الذى يرسله إليهم (سورج) طوال الوقت ، حتى أنهم أعادوا دراسة الرجل مرة أخرى ، للإفادة من إمكاناته المدهشة ..

ولقد كان ..

فما أن عاد (سورج) من (أوروبا) حتى استقبله (ماتولسكى) ، وأخبره أن الأوامر قد صدرت بإنهاء عمله فى مخابرات (الكومنترن) ، ونقله إلى المكتب الرابع ، فى المخابرات السوفيتية ، التى بدأت تبرز فى وضوح ، وتنال شهرة واسعة فى عالم الاستخبارات فى تلك الفترة بالتحديد ..

وبرقت عينا (سورج) ، وهو يستمع إلى حديث (ماتولسكى) ، ورقص قلبه بين ضلوعه طربًا ، فقد كان هذا بالضبط ما يسعى إليه منذ البداية ..

والتقى (سورج) بالكولونيل (بالدن) ، رئيس المخابرات السوفيتية ، الذى أسند إليه أولى مهماته القوية ، وطلب منه

السفر إلى (شنغهاى) فى (الصين) ، لجمع كل ما يمكنه من معلومات عن جنرال شاب ، هو (شيانج كاى شيك) ، كما كلفه بإعادة تأهيل شبكة جاسوسية مهلهلة هناك ..

وسافر (سورج) إلى (شنغهاى) عام 1930 م ، واجتمع بعملاء تلك الشبكة هناك ، وأبلغهم فى صرامةٍ أنه مُصر على أن يصنع منهم أفضل شبكة جاسوسية عرفها التاريخ ، ثم أطلق عليهم اسم (وحدة الصين) ..

وأعاد تنظيم الشبكة بأكملها من الألف إلى الياء ، كما أبدى اهتمامًا ملحوظًا بأجهزة اللاسلكى ، باعتبارها واحدة من أفضل وسائل الاتصال فى ذلك العصر ، حتى أنه استعان باثنين من الفنيين فى هذا المجال ، ونجح فى ضمهم إلى الشبكة ، ثم طلب من رؤسائه فى (موسكو) إرسال خبير لا يُشق له غبار فى هذا المضمار ..

ولأول وآخر مرة فى حياته ، انتحل (سورج) شخصية أخرى ، وحمل جواز سفر أمريكيًا باسم (مستر جونسون) ليُقيم بهذه الصفة فى فندق (أنكر) .

وكان لهذا ضرورة قصوى ..

ففى ذلك الفندق ، التقى بأهم عضو جديد فى (وحدة الصين) بالكاتبة الأمريكية الشيوعية (أجنس سميدلى) ..

ولقد كان لهذه الكاتبة الشهيرة آنذاك دور كبير فى حياة ومهمة (سورج) فلقد تولت تقديمه لمجتمع (شنغهاى) ، وساعدته على مصادقة عدد من كبار المسئولين فيها ، وعديد من الدبلوماسيين الأجانب ، وعلى رأسهم القنصل الأمريكى ، الذى أدرك (سورج) بحاسته المتطورة أنه شخص ذو شأن واضح فى (شنغهاى) وأن الارتباط به سيذلل الكثير من العقبات ، فراح يوطد صلته به ، ويقوى صداقته معه ..

وفى الوقت ذاته ، نجح (سورج) فى ضم عضو جديد إلى (وحدة الصين) ، وهو شاب يابانى ثرى ، من أسرة عريقة فى (طوكيو) ، يعتنق الشيوعية سرًا ويعمل بفضل اتصالات أسرته ، كمراسل صحفى فى (شنغهاى) لصحيفة يابانية ذات نفوذ ..

وهكذا اكتملت الشبكة ، ولم يعد ينقصها سوى وصول خبير اللاسلكى ، لوضع اللمسات الأخيرة للأمر ..

ولم يطل انتظار (سورج) طويلاً ..

ففى أوائل عام 1931 م .. وصل إلى (شنغهاى) رجل ألمانى بدين ، تفوح من ثيابه وأناقته رائحة الثراء والأرستقراطية ، وقدم نفسه للجميع باعتباره (فريدرك مانهايم) ، مندوب واحدة من

الشركات الاقتصادية الكبيرة ، ولكنه لم يكن فى الواقع سوى (ماكس كلوسن) أفضل خبير للاتصالات اللاسلكية فى العالم ..

وبقدر ما أعجب (سورج) بمهارة (كلوسن) انبهر هذا الأخير انبهارًا شديدًا ببراعة وجرأة وعبقرية الأول ؛ إذ فوجئ بأن (سورج) قد أقنع القنصل الأمريكى بتأجير حجرتين من حجرات منزله الكبير ، ليُقيم فيها (كلوسن) ..

وكانت مبادرة شديدة الجرأة من (سورج) ، ولكنها حققت نجاحًا مبهرًا ، فطوال عامين كاملين ، كانت (موسكو) تتلقى المعلومات لاسلكيًا من داخل منزل القنصل الأمريكى فى (شنغهاى) ، دون أن تُدرك الولايات المتحدة الأمريكية دورها فى هذه اللعبة قط ..

وهكذا ، حققت (وحدة الصين) نجاحات مدهشة ، تحت قيادة (ريتشارد سورج) بعد أن ظلت تُعانى من الخمول والبلادة والفشل لسنوات وسنوات ، وأعلن (سورج) نفسه كجاسوس عبقرى ، فى فن إدارة وتنظيم شبكات الجاسوسية ، مما استحق معه نقله إلى جبهة أكثر أهمية وخطورة فى ذلك الحين ..

إلى (اليابان) ..

وانطلاقًا من أسلوب تفكيره المنظم وجرأته اللا محدودة ، أدرك (سورج) أن جواز فاعليته فى (طوكيو) سيكون مدى ما يحققه من شهرة ونجاح فى (برلين) ؛ لذا فقد سعى ، وبأقصى جهده ، ليلتحق بصحافة النازى ، مؤيدًا بشهادتين من اثنين من أصدقائه ، يشيدان فيها ببراعته وأمانته ، وإخلاصه المتناهى لعمله ..

وكانت خطوة انتحارية جريئة من (سورج) ؛ إذ كان يكفى أن يقوم جهاز (الجستابو) ببعض التحريات الجادة عنه ، حتى ينكشف أمر التحاقه بالحزب الشيوعى الألمانى ، الذى ما زال يحمل بطاقته فى جيبه ، وتنفضح خطته كلها ..

ولكن العجيب أن هذا لم يحدث ، فقد اكتفى رجال (الجستابو) بخطابى التأييد وبعض التحريات الهامشية البسيطة ، قبل أن يسمحوا للدكتور (ريتشارد سورج) خبير العلوم السياسية ، بالعمل فى صحيفة (زيتونج) ، أشهر صحف النازى فى ذلك الحين ، وصاحبة أقصى تأثير فيمن هم خارج الحدود الألمانية ..

ونجح (سورج) فى إقناع رئيس تحرير جريدة (زيتونج) بتعيينه كبيرًا للصحفيين والمراسلين الألمان للجريدة فى (طوكيو) ..

وارتسمت على شفتى (سورج) ابتسامة كبيرة ، وهو يتلقى القرار ، وبادر بإبلاغه شخصيًا لأكبر رجل فى الحزب النازى ، بعد (أدولف هتلر) ..

(هملر) قائد (الجستابو) آنذاك ..

وفى ليلة رحيله ، أقام نادى الصحافة الألمانية حفلاً لوداعه ، حضره (هملر) بنفسه ، بصحبة (بوهل) ، رئيس القسم الأجنبى فى الحزب النازى ، مما أعطى انطباعًا بأن الحزب يؤيد (ريتشارد سورج) رسميًا ..

وبعد الحفل بعدة ساعات استقل (سورج) الطائرة إلى (طوكيو) ليبدأ مهمته الجديدة ..

أخطر مهمة جاسوسية عرفتها الحرب العالمية الثانية على الإطلاق ..

* * *

منذ الأيام الأولى لعمله فى (طوكيو) حرص (ريتشارد سورج) ، الجاسوس السوفيتى ، الألمانى الأصل ، على الالتقاء بكل الصحفيين والمراسلين الأجانب ، فى العاصمة اليابانية ، وتوطيد صلاته بهم ، ولم يمض وقت طويل ، حتى كان (سورج) واحدًا من أبرز وأشهر شخصيات المجتمع اليابانى ..

ولأن الحذر والدقة جزء من طبيعته ، فلقد بلغ (سورج) هذه المكانة ، دون أن يُحاول ، ولو لحظة واحدة ، أن يُمارس مهمته كجاسوس ، حتى لا يدع أدنى احتمال لسقوطه فى قبضة العدو ،

قبل أن ينتهى من تكوين شبكة جاسوسية جديدة فى (طوكيو) تنافس ، وتتفوق على تلك الشبكة المحكمة ، التى تركها خلفه فى (شنغهاى) ..

وفى تتابع متقن ، راح أفراد الشبكة يتوافدون ..

فى البداية ، التقى (سورج) بذلك الشاب الثرى اليابانى (أوزاكى) ، الذى أنهى عمله فى (شنغهاى) ، وعاد إلى (طوكيو) ، ليستغل شهرة أسرته ونفوذها مع براعته الصحفية والأدبية والسياسية ، ليصبح واحدًا من أشهر المحللين السياسيين للعلاقات اليابانية الصينية ، وإصداره لعدة كتب فى هذا الشأن ، جعلته وثيق الصلة برجال الجيش والسياسة وعلى رأسهم الأمير (كونوى) نفسه ، وسمحت له بأن يكون أحد البارزين ، فى مجموعة للدراسات الصينية ، تحت رعاية رئيس الوزراء ..

وبعد (أوزاكى) يأتى (فوكوليتش) الضابط اليوغسلافى السابق ، والمراسل الحالى لجريدة (لافيو) الفرنسية ، وجريدة (بوليتيكا) اليوغسلافية فى (طوكيو) ، والوثيق الصلة بعدد لا بأس به من موظفى السفارات والقنصليات الأجنبية فى العاصمة ..

ثم (مياجى بوتوكو) الفنان اليابانى الرقيق الطباع ، والذى سافر بعض الوقت إلى (كاليفورنيا) فى الولايات المتحدة

الأمريكية ، وأصابه الفزع من تفاوت مستويات المعيشة هناك ، مما سبب له رجة نفسية عنيفة ، جعلته يلتحق بالحزب الشيوعى ، قبل أن يعود أدراجه إلى (طوكيو) لدراسة وعمل النقوش الكلاسيكية الفنية هناك ..

وأخيرًا (كلوسن) .. (ماكس كلوسن) عبقرى اللاسلكى ، الذى استعد لبناء شبكة اتصالات لاسلكية ، تنافس تلك التحفة العبقرية التى تركها خلفه فى (شنغهاى) ..

وبمنتهى السرعة والحماس ، جمع (سورج) مجموعته ، وحدد أهدافها ، ثم أطلقها فى المجتمع اليابانى ..

وكان على الجميع ، وبمختلف الوسائل ، أن يحصلوا على أجوبة لعدة أسئلة رئيسية ، هل تعتزم اليابان مهاجمة (الاتحاد السوفيتى) أو (الصين) يومًا ؟!

وما دور الجيش اليابانى فى الشئون السياسية والاجتماعية ؟!

ثم ما مدى علاقة (اليابان) بكل من (ألمانيا) ، و(إنجلترا) و(أمريكا) ؟!

وأخيرًا ما مدى تقدم وتطور الصناعات اليابانية الثقيلة ، وتأثيرها على أية حروب محتملة ، من الناحيتين ، العسكرية ، والاقتصادية ؟!

وأطلق (سـورج) الحريـة لرجـال مجموعتـه ، لجمـع كـل ما يمكن من المعلومات ، حول هذه الأمور ..

ولم يكن هذا راجعًا إلى دقة (سورج) وحذره فحسب ، ولكن أيضًا إلى النشاط الزائد للشرطة السرية اليابانية (الكمبتاى) فـى ذلك الحين ، والتى بدأت تتعامل مع كـل الأجانب باعتبـارهم جواسيس ، حتى يثبت العكس ، مما يوحى ، ويؤكد أن (اليابان) فى طريقها إلى بعض التغيرات القوية فى المرحلة القادمة ..

وبكل ترقب ولهفة واهتمـام ، راحت (موسكو) تُتابع أخبـار شبكة (طوكيو) بمنتهى الحذر فى انتظار مـا ستسفر عنه الأمور ، خاصة وأن (سورج) قد حدد مصروفات الشبكة بما يساوى ثلاثة آلاف دولار شهريًا وهو مبلغ باهظ للغاية ، فى ذلك الحين ..

ولكن الشبكة حققت أول انتصاراتهـا ، على نحو جعل (موسكو) تطمئن إلى أنها تستحق كل سنت يُصرف عليها ..

فذات يوم ، وبينمـا كـان (أوزاكـى) يحضر اجتماعًـا للجنـة الدراسات الصينية ، علم من رئيس الوزراء أن هناك تفكيرًا فـى غزو يابانى (للصين) و(منشوريا) ومـا أن وجد نفسـه وحيدًا مـع بعض المسودات ، حتـى أسرع يلتقط بعض الصـور لهـا ، وقدمها فى المسـاء إلـى (سـورج) الـذى أدرك خطورة الأمـر ،

فسافر بنفسـه لتسليم تلك المعلومـات يداً بيدٍ ، إلـى أحد رجـال المخابرات السوفيتية فى (أوروبا) ..

وحدث الغزو اليابانى بالفعل ..

وكانت كارثة عسكرية على كل المستويات ، خاصة أن الطبيعة الجبلية الصـينية المنشورية ، كانت تقف مع سكان البلدين ضـد المحتلين الذين وجدوا أنفسـهم مُحاصرين وسط الجبال ، فأسرعوا يتراجعون على نحو مخز ، ثم لم يلبثوا أن تغلبوا علـى المقاومـة ونجحوا فى احتلال شمال (الصين) كله ..

وتنفس السوفيت فى ارتياح لأن عميلهم الألمانى الأصل أمكنـه أن يبلغهم بتلك المعلومات شديدة الخطورة قبل أن يحدث الغزو بعدة أسابيع ..

ولكن (سورج) ومجموعته كانوا يحملون مفاجأة جديدة .. وانتصارًا جديدًا ..

ففى أواخر ديسمبر 1935 م ، وأوائل يناير فى العام التـالى ، أكد (سـورج) فـى رسـالة لاسلكية إلـى (موسكو) أنـه توجـد توترات عنيفةً بين صفوف الجيش اليابانى وأنه من المحتمـل أن يثور هذا الجيش على قادته ، فى القريب العاجل ..

وتشككت (موسكو) كثيرًا في هذه المعلومات ، خاصة وأن كل شيء كان يبدو لها هادئـا ، وطلبت تأكيدها أكثر من مرة ، فأكدها (سورج) في إصرار ثلاث مرات متتالية ، كان آخرها في الثالث عشر من فبراير 1936 م ..

وفي السادس والعشرين من فبراير ، حدثت ثورة الجيش ، التي يُطلقون عليها في التاريخ الياباني الحالي اسم (حادث فبراير) ..

وتأكدت (موسكو) أكثر وأكثر ، من دقة عميلها ، وقوته ، وبراعته المدهشة في جمع وتحليل أدق وأخطر المعلومات ..

ولكن (سورج) لم يلبث أن فاجأهم مفاجأة أكثر عنفًا ، جعلتهم يرتجون من الأعماق ..

فمن خلال صداقته الشديدة للملحق العسكري للسفارة الألمانية في (طوكيو) والذي أصبح سفيرًا فيما بعد ، علم (ريتشارد سورج) بوجود اتصالات سرية ، بين (اليابان) و(ألمانيا) ، وأنهما تعتزمان عقد اتفاقية خاصة ، تجمع ما بين التعاون السياسي والعسكري ..

وقبل أن تستعلم (موسكو) عن مدى دقة المعلومات كان (أوزاكي) قد حصل على كل تفاصيل الاتفاقية الرسمية ، التي

تنص على وجود تعاون عسكري وسياسي شامل ، بين (اليابان) و(ألمانيا) ، وتبادل للبعثات العسكرية بينهما ، والتحالف ضد العدو المشترك ، الذي لم توافق (اليابان) على اعتباره (الاتحاد السوفيتي) نفسه ، وإنما رأت أن يقتصر على (الكومنترن) ، باعتباره جزءًا من النظام السوفيتي ، وليس النظام كله ..

وروعت هذه الأخبار (موسكو) بشدة ، وخاصة بعد وصول بعثة (لتوتواف) الألمانية العسكرية إلى (طوكيو) بالفعل ، واعتبرت هذا بداية مخيفة لتحالف عسكري ، يُهدد (الاتحاد السوفيتي) كله بخطر داهم رهيب ..

وفي هذه الأثناء ، وبينما كانت المجموعة تعمل بأقصى طاقتها ، حدث تطور خطير للغاية ..

كانت أولى ثمرات التعاون الألماني الياباني ، هو حصول الأخيرة على بعض التكنولوجيا الألمانية المتطورة ، في ذلك الحين ، وعلى رأسها أجهزة تتبع البث اللاسلكي ، التي كان يمكنها .. آنذاك كشف مصدر بث ، يقع في دائرة نصف قطرها كيلومتران ، ولقد اختبر الكولونيل (أوزاكي) هذا الجهاز الجديد بنفسه ، باعتباره رئيس قسم الجاسوسية المضادة في (طوكيو) ..

وكانت بانتظاره مفاجأة مذهلة ..

لقد التقط الجهاز بثًّا لاسلكيًا قريبًا ، يحوى رسالة شفرية ، من الواضح أنها فى طريقها إلى جهة خارج (اليابان) ..

وكان هذا يعنى أن جهاز الجاسوسية المضادة يواجه جاسوسًا داخل (طوكيو) ، يرسل المعلومات عبر شبكة لاسلكية إلى قادته ، فى مكان ما ..

وانقلبت الدنيا فى (طوكيو) ..

استدعاءات ، واستجوابات ، وتفتيش غير معلن لمنازل الذين يشتبه فى كونهم جواسيس للعدو .. أى عدو ..

ولأنه ليس موضعًا لأية شبهات ، فقد بلغت الأخبار (سورج) مبكرًا ، فأسرع يبلغ (كلوسن) ، وأمره بإخفاء جهاز البث اللاسلكى ، والتوقف عن إرسال أية رسائل إضافية إلى (موسكو) ..

ولقد استغرق عودة الأمر إلى مساره العادى فترة استمرت حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية بالفعل ، عام 1939 م ..

وكان سورج يواجه مشكلتين ضخمتين ، عليه أن يتجاوزهما ، قبل أن تتعقد الأمور أكثر ، إحداهما تتعلق بالكولونيل (أوزاكى) ، رئيس جهاز الجاسوسية المضادة ، وثانيتهما تتعلق بزميله (كلوسن) نفسه ..

وبأوامر من (سورج) ، أنهى (كلوسن) عمله كمندوب مبيعات لشركة كبرى ، وافتتح شركة للطباعة خاصة به ، واستحضر من أجلها بعض آلات الطباعة الألمانية ، وعددًا من الخبراء الألمان ، ثم لم تلبث شركته أن تولت طباعة كل المطبوعات الحكومية اليابانية ، بمساعدة (سورج) ..

ومع اندلاع الحرب ، كان ينبغى أن تتولى الوحدة مهامًّ أكثر خطورة وحساسية ، وعلى رأسها التأكد من أن (طوكيو) لا ترغب ، ولا تفكر فى تأييد البريطانيين ، أو الدخول فى حرب مع (موسكو) ..

ولكن الأمور لم تلبث أن اتضحت فى سرعة ، مع احتلال (هتلر) لجارته (النمسا) ، وانطلاقه فى (أوروبا) كالوحش الكاسر ، فى محاولة لتسييد الجنس الآرى ، وسيطرته على العالم أجمع ، وتأييد (طوكيو) لهذا العمل الاستعمارى البغيض ..

وتزايدت مخاوف (موسكو) فى انقضاض الجيوش اليابانية عليها ، إلا أنها فوجئت بمندوب (هتلر) يعرض عليها اتفاقية دفاع مشترك ، تأمن بموجبها شر (ألمانيا) و(اليابان) فى آن واحد ، فأسرع قادتها يوقعونها ، وتنفسوا بعدها الصعداء ، متصوِّرين أن الحرب قد انتهت بالنسبة لهم ..

ولكن هذا لم يمنع وحدة (سورج) من مواصلة عملها بأقصى طاقتها ، لجمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات والأسرار العسكرية ، وخاصة تلك التى تتعلق بالتعاون الألمانى اليابانى ..

وفى الوقت الذى راحت جيوش (هتلر) تكتسح فيه خط (ماجينو) الفرنسى ، ومن بعده (أوروبا) ، كان الكولونيل (أوزاكى) ، رئيس قسم الجاسوسية المضادة قد خفض قائمة الأسماء المشتبه فيها لديه إلى عدد محدود للغاية ، كان يشمل اثنين من أهم أصدقاء ومستشارى السفير الألمانى فى (طوكيو) ، وهما ضابط الجستابو السابق ، والذى تم نقله إلى (طوكيو) كنوع من العقاب ، الكولونيل (ميسنجر) ، و(ريتشارد سورج) ..

والعجيب أن قائمة الكولونيل (أوزاكى) كانت تشمل أيضًا الصحفى (أوزاكى هوزومى) ، باعتباره أحد المطلعين على الأسرار العسكرية اليابانية ، وتربطه صلة صداقة بالمشتبه فيه (ريتشارد سورج) ، ولكنه لم يسمح لنفسه بمجرّد التفكير فى أن يكون أحد مواطنيه جاسوسًا ؛ لذا فقد استبعد الاسم من القائمة ، وأسقطه من ذهنه تمامًا ..

والتقى الكولونيل (أوزاكى) بالسفير الألمانى (أوت) وطرح عليه تلك الفكرة التى اختمرت فى ذهنه ، دون أن يُشير إلى شكوكه ،

وانحصارها فى مسئول أمن السفارة (ميسنجر) ، أو مستشارها الصحفى (سورج) ..

وارتبك (أوت) فى شدة ، وأذهله أن يشك اليابانيون فى وجود جاسوس يرتبط بالسفارة الألمانية ، وكان من الطبيعى أن يطرح الأمر على أقرب معاونيه إليه (ميسنجر) و(سورج) ، ولقد ألجم الخبر لسان الأخير بحق ، وقرر أن يجمع رجاله ، لمناقشة هذا التطوّر المخيف ..

أما (ميسنجر) ، فقد أرسل فى طلب معلومات دقيقة عن كل العاملين بالسفارة ، من (برلين) مباشرة ، وذهب لزيارة الكولونيل (أوزاكى) فى مكتبه ، والتنسيق معه ، بحيث يحوز الاثنان وحدهما شرف إلقاء القبض على الجاسوس المنشود ، دون أن يقحما الآخرين فى الأمر ..

وكانت كلمة (الآخرين) هذه تشمل (سورج) أيضًا ، ولهذا لم يعلم بالأمر فى حينه ، ولم يُدرك ما يحدث حوله ، فى تلك المرحلة ، على الرغم من اهتمامه الشديد بإخفاء كل أثر ، يمكن أن يقود إليه ، أو إلى مجموعته ، أو حتى يُثير الشبهات حولهم ..

وفجأة ، وبينما يلتزم الجميع الحذر ، وصلت معلومة بالغة الخطورة إلى (سورج) ، عن طريق (أوزاكى) الصحفى ، ورفيقه (مياجى) ..

معلومة تقول إن (ألمانيا) تعتزم خرق اتفاقيتها مع (موسكو) ، وشن هجوم عليها ، فى محاولة لاحتلال مواردها الاقتصادية الرئيسية ، وتحاول إقناع (اليابان) بخوض المعركة معها ، فى الوقت ذاته ، للإطباق على الجبهة السوفيتية من الجانبين فى آن واحد ..

وكان من الطبيعى أن تنزعج (موسكو) بشدة من هذا الخبر ، وأن ترسل بسرعة إلى (سورج) ، لتأكيد هذه المعلومة المخيفة ، بأقصى سرعة .

وأكد (سورج) المعلومة بشدة ، وحذر من هجوم مزدوج ، فى منتصف يونيو 1941 م ..

وأسقط فى يد السوفيت ، وأسرعوا يحصنون حدودهم الغربية ، ضد الضربة الألمانية والحدود السيبيرية ، فى مواجهة الغزو اليابانى المحتمل ..

وفى الثانى والعشرين من يونيو ، بدأ (هتلر) عملية (باربروسا) ، لغزو الاتحاد السوفيتى ، وراحت جيوشه تشق طريقها بلا رحمة ، حتى أصبحت على مشارف (موسكو) ، مكتسحة أمامها كل الجيوش السوفيتية ، فى حين ظلّت الفرق الأقوى عند الحدود السيبيرية ، خشية حدوث هجوم يابانى عنيف ..

وبات من الواضح أن (ألمانيا) ستنتصر حتمًا فى هذه المواجهة ..

وفى هذا الوقت ، كان الكولونيل (أوزاكى) قد التقى بالصحفى (سورج) ، ووطد صلاته به ، ثم قدّمه لراقصة يابانية فاتنة تدعى (كيومى) ، كانت تعمل فى الواقع لحساب مكتب الجاسوسية المضادة اليابانى ، ومهمتها هى الارتباط بالألمانى ، وكشف حقيقته ..

والعجيب أن (سورج) لم ينتبه قط إلى ارتباط (كيومى) بمكتب الجاسوسية المضادة ، وسعى بدوره للارتباط بها بعلاقة وثيقة للغاية ..

ولكن هذا لم يمنعه من مواصلة عمله ، بمنتهى الدقّة والاهتمام ، متحديًا كل المخاطر ، حتى حصل على أخطر معلومة وقعت عليها يداه ، منذ اقتحم عالم الجاسوسية ..

معلومة من مصادر عسكرية مطلعة ، تؤكّد أن (اليابان) قرّرت عدم خوض الحرب فى الجبهة السيبيرية ، والاكتفاء بحروبها فى (الصين) والهند الصينية ..

ولم تكد المعلومة تبلغ (موسكو) ، مع تأكيداتها ، حتى اتخذ القادة قرارًا بسحب ما يقرب من مليونى جندى ، مع معداتهم الحربية ، من الجبهة السيبيرية ، ودفعهم لمواجهة الألمان فى الغرب ..

وكانت نقطة تحوّل جوهرية ، فى مسار الحرب العالمية الثانية ..

فلقد واجه الجيش الألمانى ضربة ساحقة ، وسط جليد (موسكو) الدامى ، واندحرت قوته ، وبدأ مرحلة من التراجع ، لم تتوقف قط حتى دخلت قوات الحلفاء (برلين) ..

وعلى الرغم من أن هذا أعظم انتصار حققه (سورج) فى حياته كلها ، بل وأعظم انتصار عرفته عملية جاسوسية ، حتى ذلك التاريخ ، إلا أن الرجل لم ينعم بالنصر طويلا ..

فذات ليلة ، مزق (سورج) ورقة صغيرة أمام (كيومى) ، بعد أن قرأ ما بها ، وألقى القصاصات من نافذة سيارته ، ولكن (كيومى) أسرعت تبلغ الكولونيل (أوزاكى) ، الذى أمر رجاله بجمع كل قصاصات الورق ، من المكان الذى حددته (كيومى) ، وإعادة ترتيبها ولصقها ، ثم واجه بها (سورج) ، قبل أن تشرق شمس اليوم التالى ..

وكانت هذه آخر معلومة وصلت إلى (سورج) ، الذى لم يجد الوقت لإرسالها إلى رؤسائه قط ..

معلومة تقول : إن حاملة طائرات يابانية ستُهاجم ميناء (بيرل هاربور) الأمريكى ، فجر يوم 6 نوفمبر القادم ..

وانطلق الكولونيل (أوزاكى) خلف أعضاء الشبكة ، ليوقع بهم جميعًا ، قبل أن ينتصف النهار ، أو يُعلن أمر سقوط (سورج) ، أو يبلغ حتى السفارة الألمانية نفسها ..

وكانت مفاجأة رهيبة للجميع ، وخاصة بعد أن انهار (مياجى) و(فوكوليتش) و(كلوسن) ، وانهمرت منهم الاعترافات كالمطر ..

وتمت محاكمة الجميع ، وبدا (سورج) أثناء المحاكمة شامخًا ، قويًّا ، مهيبًا كعادته ، حتى وهو يتلقى مع (أوزاكى) الحكم بإعدامهما ..

وفى السابع من نوفمبر 1944 م ، تم إعلان إعدام الدكتور (ريتشارد سورج) ، لينسدل الستار على أشهر جاسوس عرفه التاريخ ..

ولكن فى مارس 1946 م ، كانت (كيومى) تؤدى رقصتها ، على أحد مسارح اليابان ، عندما أصابتها موجة ذعر مباغتة ، وانطلقت تعدو إلى حجرتها ، وهى ترتجف كريشة فى مهب الريح ، هاتفة :

(سورج) هنا .. لقد رأيته بنفسى .

وفجَّرت عبارتها هذه عاصفة عاتية ، فى عالم جاسوسية ما بعد الحرب ، وراح العشرات ينبشون الأرض ، بحثًا عن أدلة مصرع (سورج) .. أو وجوده ..

ولكن لم يكن هناك دليل واحد على موت (ريتشارد سورج) ..

أو حتى على حياته ..

الدليل الوحيد المؤكَد ، بالنسبة للجميع ، هو أن (سورج) كان بالفعل جاسوسًا فريدًا ..

الجاسوس الذى استحق ذلك اللقب ، الذى كان وما زال يحمله ، فى تاريخ الجاسوسية ..

لقب (الأستاذ) ..

★ ★ ★

أم الجاسوسات ..

هذه الجاسوسة بالذات ، لها وضع خاص جدًا ، فى تاريخ الجاسوسية ..

ربما لأنها أول امرأة ، يسجل التاريخ الحديث عملها بالجاسوسية ..

إنها ، (إيما س . إدموندز) ..

و (إيما) هذه جاسوسة أمريكية ، كندية المولد ، عملت بنجاح خلف خطوط الحلفاء ، أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وربما كانت هى الجاسوسة الوحيدة فى التاريخ التى كانت تعمل ، فى هذه الفترة ، التى كانوا يعتبرون فيها المرأة مجرّد مربية وزوجة ، وخادمة منزلية فحسب ..

ولقد جاءت (إيما) إلى الولايات المتحدة من (نيو برانز ويك) فى (كندا) ، عام 1856 م ، وعندما بدأت الحرب الأهلية حملت اسم (فرانك تومبسون) ، وتطوعت للعمل كممرض ذكر فى الجيش الاتحادى ، لفترة ليست بالقصيرة ، دون أن ينكشف أمرها ، على الرغم من إقامتها التامة ، وسط جنود الجيش ، طوال تلك الفترة ..

ولقد حضرت (إيما) المعركة الأولى ، بين قوات الحلفاء والولايات المتحدة ، وهى معركة (بل رن) (Bull Run) (جرى الثيران) ، وأول معركة عنيفة قامت بينهما ، وبعد أن قضت عامين فى خدمة التمريض ، دون أن ينكشف أمرها ، ذهبت (إيما) إلى المسئولين بإرادتها ، وكشفت لهم أمرها ، فأصابهم ذهول شديد ، تضاعف عندما روت قصتها ، ثم قفز إلى الذروة ، عندما أعلنت هدفها الحقيقى ، من وراء هذا ..

فمع براعتها المذهلة ، فى فن التنكر والتقمّص ، عرضت عليهم (إيما) أن تتطوّع للعمل كجاسوسة ، خلف خطوط الحلفاء ..

وعلى الرغم من غرابة الفكرة ، أو ربما لغرابتها نفسها ، وافق المسئولون على مطلبها ، وأصبحت (إيما) بالفعل جاسوسة فريدة من نوعها ، فى ذلك الزمن ..

ولقد أثبتت (إيما) أنها تستحق ما حصلت عليه بالفعل ، بل ولن نبالغ ، لو قلنا إنها قد بهرت المسئولين إبهارًا ، وخاصة عندما صبغت جلدها ، وتنكرت كشاب أسود ، وارتدت باروكة شعر ؛ للعبور إلى الخطوط الأمامية ، بالقرب من (يورك تاون) فى (فا) ..

وكانت مهمة يخشاها أشجع الرجال ..

ولكن (إيما) أدتها بجرأة ومهارة مذهلين ..

يعتبر المؤرخون أن الجاسوسة الأمريكية ، كندية المولد (إيما س . إدموندز) ، واحدة ممن كتبن ، بجرأتهن وشجاعتهن ونجاحهن ، الوثيقة الأولى لعمل النساء (رسميًّا) ، فى عالم الجاسوسية ..

* * *

ولقد أثبتت هذا بجدارة ، فى مهمتها الأولى ..

فعلى الرغم من قصر المدة ، التى قضتها (إيما) ، وراء خطوط الحلفاء ثلاثة أيام إلا أنها عادت بمعلومات عسكرية مهمة ، كان لها الفضل الأول ، فى معظم ما أعقبها من انتصارات ..

وكانت هذه مجرد بداية ..

فخلال الأشهر التالية ، استطاعت (إيما) بنجاح أن تنجز إحدى عشرة مهمة أخرى ، خلف خطوط الحلفاء ، دون أن يتم كشفها ..

وكان لبراعتها المدهشة ، فى التنكر والتقمص ، الفضل الأول فى كل ما حققته من نجاحات ، فى عالم الجاسوسية المدهش ..

ففى إحدى المرات ذهبت على هيئة بائعة جائلة أيرلندية ، ولم تكتف بالحصول على أسرار ومعلومات الخصم فحسب ، وإنما حقّقت ربحًا ماديًّا وفيرًا أيضًا ..

وفى تلك المرة ، وبعد أن أنجزت مهمتها ، سعت (إيما) للحصول على تذكار كعادتها ، كما لو أنها فى رحلة سياحية طريفة ، وليست فى مهمة ، تحمل الموت فى طياتها ؛ لو انكشف أمرها ..

ولأنها تعشق المخاطرة والمغامرة ، قرَّرت (إيما) أن يكون تذكارها ، فى تلك المرة ، هو أزرار الزى العسكرى لقائد المعسكر ..

وفى سبيل هذا ، تسللت (إيما) فى ظلام الليل ، إلى حجرة القائد ، ونزعت الأزرار بالفعل ، وقبل أن تغادر ، فوجئت بالقائد أمامها ، يسألها فى غضب هادر ، عن سر تواجدها فى حجرته ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

والمدهش أن (إيما) لم ترتبك أو تتوتر ، بل حافظت على تماسكها واتزانها ، واصطنعت البكاء فى حرارة ، وهى تدعى غرامها بالقائد ، وتسللها إلى حجرته لرؤيته ، بعد أن غلبها الشوق إليه ..

وانبهر القائد بعواطفها الجياشة ، وطيّب خاطرها ، وأخبرها فى حماس أنه رهن إشارتها ، ثم أوصلها بنفسه إلى باب حجرته ، التى غادرتها حاملة أزراره الذهبية ، التى لم يكشف

ضياعها ، مع خدعة (إيما) ، إلا فى اليوم التالى ، وعندما أصبحت هى على الجانب الآخر بالفعل ..

ويقول مؤرخو عالم الجاسوسية : إن (إيما) كانت لها شجاعة عشر رجال ، وبراعة مائة خبير ، وإقدام جيش كامل ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت فى تعاملاتها العادية بسيطة هادئة ، تبتسم دومًا فى وداعة ، وتتحدّث برقة ، حتى ليخيّل لك أنها مجرّد ربة منزل بسيطة ، لا تميل إلى مغادرة بيتها إلا لماما ..

وربما لهذا يعود نجاحها المدهش ، فى كل عمليةٍ قامت بها ؛ إذ كان وجهها يبعث على الثقة والارتياح ، سواء تنكرت فى هيئة امرأة أو رجل ، مما يستحيل معه أن تشك فى أمرها لحظة واحدة ..

ففى ذات مرة ، تنكرت (إيما) فى شكل كاتب حسابات للبضائع المجففة ، وزارت عددًا من معسكرات الأعداء ، وتجولت بينهم فى حرية ، وشاركتهم الطعام والشراب ، بل وعقدت العديد من الصداقات معهم ، حتى أن أحدهم وصفها بأنها الشخص الوحيد ، الذى يمكنه أن يفتح له قلبه ، ويمنحه ثقته بلا حدود ..

وحتى عندما فارقتهم (إيما) ، حاملة أدق أسرارهم ، لم يراودهم الشك فى أمرها قط ، وإنما تصوّروا أن صديقهم يتبع عمله ، أينما دعته الحاجة ..

ولم تكن هذه أكثر عمليات (إيما) جرأة فى الواقع ؛ فقد كانت هناك عملية أخرى ..

عملية بلغت فيها جرأتها ذروتها ..

النهائية .

فعلى الرغم من تظاهرها بأنها رجل أسود حر ، إلا أن المشرف حين رآها كلفها بالعمل فى حصون الحلفاء ، وبعد يوم واحد ، من العمل الشاق ، استطاعت أن ترسم (سكتشًا) دقيقًا للحصون ، وتحصى المعدات الموجودة بها ..

فى اليوم التالى كانت تحمل الماء للعمال والطعام للقوات ، وعلى الرغم من كونها تحت المراقبة ، عندما عملت كـ(خفير درك) ، إلا أنها أفلتت من كل ما حولها ، واستطاعت فى ليلة ممطرة أن تتراجع للخطوط الأمريكية ، حاملة معها بندقية من بندقيات الحلفاء كتذكار ..

وكان هذا أحد أهم ما تحرص عليه ، فى كل مهمة ..

التذكارات ..

ولقد كاد هذا يكتب نهايتها يومًا .. وبمنتهى العنف .

ففى تلك العملية ، علمت (إيما) بوفاة جندى شاب ، فى معسكر الأعداء ، فما كان منها إلا أن تنكرت فى هيئة شاب ، وذهبت إلى معسكر الأعداء ، باعتبارها الصديق الوفى ، الحزين لمصرع صديقه الوحيد ..

وبعد أن تلقت (إيما) العزاء ، فيمن يفترض أنه صديقها ، أبدت غضبها مع حزنها ، وعرضت الانخراط فى صفوف الجيش ؛ للانتقام ممن قتلوه ..

وبطبيعة الحال ، جرف الحماس الجميع ، وتم قبول طلبها ، وأصبحت (إيما) جنديًا ، فى صفوف الأعداء ..

وهل يمكنك أن تتخيل كمَّ المعلومات ، الذى يمكن أن تحصل عليه ، من قلب العدو مباشرة ؟؟!!

الأكثر جرأة ، أن (إيما) كانت تتسلل إلى صفوفها الأصلية ، مرة كل أسبوع على الأقل ؛ لتنقل كل مالديها من أسرار ومعلومات ، وهى فى هيئة امرأة ، ثم تعود مرة أخرى إلى الأعداء ، فى هيئة جندى مخلص ..

ولم تفصح (إيما) أبدًا عن الوسائل التى تتبعها ، فى الخروج والدخول ، بكل هذه البساطة ، فى زمن الحرب ، حتى أن بعض المؤرخين شكوا فى كونها جاسوسة مزدوجة ، تعمل لحساب الجانبين ، فى وقت واحد !!

ولكن هذا الاعتقاد ينتفى تمامًا ، مع الوسيلة ، التى ماتت بها (إيما) ..

فطوال الوقت ، كان الكل يتوقعون أن تلقى (إيما) مصرعها فى ساحة القتال ، أو أن يتم الإيقاع بها وإعدامها ، إلا أنه حتى فى هذا ، فاجأت (إيما) الكل ..

فأثناء انتحالها شخصية الجندى ، وربما لتنقلاتها المتواصلة ، أصيبت (إيما) بحمى الملاريا ، التى اشتدت عليها ؛ بسبب رفضها العلاج ، خشية كشف حقيقة جنسها ، ثم لم تلبث أن قامت برحلتها الأخيرة بين الجانبين ، متحاملة على نفسها ، لتموت فى هدوء ، شاحبة نحيلة ، على فراش المرض ..

وطوال حياتها ، لم تعرف (لإيما) علاقة عاطفية واحدة ، ولم تمنحها حياتها غير المستقرة فرصة للزواج أبدًا ..

ولكنها كانت ومازالت ، تحمل صفة تضمن لها مكانة هامة فى التاريخ ..

تاريخ الجاسوسية .

★ ★ ★

ملك الغموض ..

من الطبيعى أن تتميز حياة رجال المخابرات بشىء من الغموض ، فطبيعة عملهم تحتم عليهم التزام الصمت والكتمان ، وتغليف تفاصيل العمل بغلاف من الرصاص القوى السميك ، يمنع تسرب أية معلومة ، مهما بلغت تفاهتها ..

ومن المؤكد ، أن زوجات رجال المخابرات يعانين كثيرًا من هذا الغموض ، حيث يستحيل عليهن مناقشة أزواجهن فى العمل ، أو حتى معرفة مكان هؤلاء الأزواج ، عندما يختفون طويلاً ، ولفترات غير محدودة ، ثم يعودون بوجوه جامدة ، لا تشف عمّا فعلوه ، أو واجهوه ، فى تلك الفترات ..

ووسط كل رجال المخابرات ، يبرز الكولونيل (كناريس) ، مدير المخابرات فى عهد الرايخ الثالث ، عندما تصوّر (أدولف هتلر) أنه أذكى وأقوى قادة الأرض ، فقرر غزو جيرانه ، واحتلالهم بالقوة ، مما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945 م) ..

فى ذلك العهد تألق اسم الكولونيل (كناريس) ، على الرغم من كل ما أحاط بهذا الرجل من غموض ، فلا أحد يعلم تفاصيل

حياته ، قبل التحاقه بمخابرات (هتلر) ، ولا أحد يمكنه سبر غوره ، أو قراءة ملامحه الجامدة كالصُلب ، الباردة كالثلج ..

حتى الانتماء الحقيقى لـ (كناريس) ما زال غامضًا ، حتى هذه اللحظة ..

ففى البداية كان (أدولف هتلر) شديد التعلّق بـ(كناريس) ، يمنحه كل ثقته ، ويشاركه أفكاره وخططه واهتماماته ، ويُشيد به فى كل المواقف ، مؤكدًا أن (كناريس) يُقدّم لبلاده خدمات بطولية جليلة ، لم يحن الوقت لنشر تفاصيلها بعد ..

ولكن فجأة انقلب (هتلر) على (كناريس) ، وبدأ يشك فى إخلاصه وأمانته ، بل فى المعلومات التى يجلبها إليه ، حتى أنه قد استدعاه مع بدء حملة (بارباروسا) على (الاتحاد السوفيتى) ، وسأله عما لديه من معلومات عن القوات السوفيتية ، وعندما ذكر له (كناريس) ما لديه فى هذا الشأن ثار (هتلر) ، واتهمه بأنه يُبالغ فى تقدير القوات السوفيتية ، ليوحى إليه بإنهاء الحرب ، ثم أصدر قراره بعزله من الخدمة ، وتعيين مدير مخابرات آخر ..

ثم حدثت محاولة اغتيال (أدولف هتلر) الفاشلة ، التى انتهت بإلقاء القبض على عدد من أبرز قواد الجيش ، وعلى كل المشتبه فيهم ، وعلى رأسهم (كناريس) نفسه ..

وتعرّض (كناريس) لتعذيب شديد ، على يد (الجستابو) ، ولكن دون أن يبوح بكلمة واحدة ، ودون أن يعثر (الجستابو) على دليل واحد على خيانة (كناريس) ، أو حتى على تورّطه فى حادث الاغتيال ..

ثم انتحر أحد أصدقاء (كناريس) المقربين ، فى ظروف غامضة ..

وعند بحث الأمر ، عثر (الجستابو) فى خزانة هذا الصديق ، على بعض الأوراق ، من مذكرات (كناريس) ، بها ما يُدين هذا الأخير ..

وتم تقديم (كناريس) للمحاكمة ..

وفى أثناء المحاكمة ، ذكر مدير المخابرات الجديد (كلتنبرونر) ، أنه قد تولّى منصب مدير المخابرات ، بعد الشك فى أن (كناريس) كان يتعاون مع الأعداء لسنوات طويلة ، وأن الأوراق ، التى تمّ العثور عليها فى خزانة الصديق المنتحر ، تثبت هذه الخيانة ..

وبعد محاكمة عاجلة ، قيل إن (كناريس) قد تم إعدامه شنقًا ، ثم أحرقت جثّته بعد هذا ..

ولكن القصة لم تنته بعد ..

لقد ظلّ الغموض المحيط بـ(كناريس) كما هو ..

بل لقد تضاعف أضعافًا مضاعفة ..

فقبل نهاية الحرب العالمية الثانية ، قال (هتلر) : إن (كناريس) كان خائنًا ، وإنه استحقّ المصير الذى لاقاه ..

ولكن وفاة (كناريس) لم تُعلن رسميًّا أبدًا ..

حتى طريقة موته ، لم يعرفها أحد حتى الآن بصورة واضحة ، فالبعض يؤيدون قصة شنقه وإحراق جثّته ، فى حين يؤكد آخرون ـ من الألمان أيضًا ـ أنه قد قُتل فى أواخر الحرب ، وفى نفس الوقت يصر البعض على أنه لم يمت ، وأنه ظلّ على قيد الحياة لفترة طويلة ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

وبعد انتهاء الحرب ، أعلن البريطانيون أن الكولونيل (كناريس) كان يمدّهم بأدق الأسرار فى أثناء الحرب ، وبالكثير من المعلومات العسكرية السرية ، مثل المعلومات عن غارات الطيران على (بريطانيا) ، وغزو (النرويج) ، وغيرها ..

ولكن أحد كبار رجال المخابرات البريطانية يقول : إن كل تلك المعلومات كانت زائفة ، حتى أن رجال المخابرات البريطانية لم يأخذوا بها ..

وفى نفس الوقت يقول عميل للمخابرات اليوغوسلافية : إن (كناريس) قد أوفد الجنرال (كلايست) إلى (إنجلترا) ، فى

محاولة لتحريض الإنجليز على دخول الحرب ضد (هتلر) ، وفى أثناء غزوه لـ(تشيكوسلوفاكيا) ، ولكن مهمة (كلايست) باءت بالفشل ..

ويُقال أيضًا إن (كناريس) قد استغل صداقته للجنرال (فرانكو) ، وأقنع هذا الأخير بالبقاء على الحياد ، وعدم الانضمام إلى (هتلر) فى الحرب ، مما كان له أكبر الأثر فى تعزيز وتقوية موقف الحلفاء ..

وعندما فكّر (هتلر) فى اغتيال (فرانكو) ، رفض (كناريس) الاشتراك فى هذه العملية ..

وكانت هذه بداية بذر الشك فى قلب (هتلر) ، تجاه (كناريس) .

وإلى هنا أيضًا لم تنته القصة .

ففى عام 1947 م ، أعلنت المخابرات الفرنسية أن أحد رجالها فى (الأرجنتين) قد عثر على (كناريس) ، الذى يحيا هناك متنكرًا ، فى مزرعة كبيرة ، مع زوجة أرجنتينية ، وأبناء فى لون القمح ، ولهم عيون زرقاء ، وشعر أشقر جميل ..

وأعلنت المخابرات الفرنسية أيضًا أن قصة مقتل (كناريس) هى مجرّد شائعة ، أطلقها هو نفسه ، ليمكنه الفرار ، والحياة فى هدوء ..

وبسرعة كعادة الأمريكيين استقلّت صحفية أمريكية أوّل طائرة إلى (الأرجنتين) ، وانطلقت إلى تلك المزرعة ..

ولكن المزرعة كانت خاوية على عروشها ..

وبسؤال الجيران ، أجمعوا على أن صاحب المزرعة قد هجرها بسرعة تُثير الدهشة ، وأنه قد رحل إلى جهة مجهولة ..

وترك خلفه علامة استفهام كبيرة !!

ورفضت الصحفية الأمريكية العودة بيد خاوية ، فاستقلّت الطائرة التالية إلى (ألمانيا) ، وراحت تجمع أكبر قدر من المعلومات ، عن الأيام الأخيرة له ..

أخبرها البعض أنه قد لقى مصرعه شنقًا وحرقًا ، وأن آخر كلماته ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة هى :

سأموت مستريح الضمير ؛ لأننى أموت فى سبيل بلادى .

ولكن أحدًا لم يرشدها إلى قبره ، أو حتى رماده ..

وأخبرها البعض الآخر أنه لم يمت ، وإنّما عاد يعمل فى صفوف المخابرات الألمانية سرًا ..

ثم جاء من يهمس فى أذنها ، أن (كناريس) ما زال على قيد الحياة ..

بل هناك من أعطاها عنوانه ..

وذهبت الصحفية إلى العنوان ..

وإلى عناوين أخرى وأخرى ..

وأخيرًا أعلنت الصحفية العنيدة استسلامها ، وعادت إلى بلادها وهى تلعن (كناريس) ، وإن لم تحسم أمر وفاته أو حياته أبدًا ..

وهكذا ، وحتى فى مماته ، ظلّ الكولونيل (كناريس) محتفظًا بذلك اللقب ، الذى ظلّ يحمله طيلة حياته ..

لقب (ملك الغموض) ..

★ ★ ★

أشهر جاسوسة ..

منذ مطلع القرن العشرين ، احتل اسمها مكانة خاصة فى التاريخ ..

تاريخ الجاسوسية ..

والآن ونحن نقترب من القرن الحادى والعشرين ، لم تتفوق عليها جاسوسة أخرى ، أو تنجح فى احتلال مكانها ومكانتها قط ، كأشهر جاسوسة عرفها العالم ..

بغض النظر عن طبيعتها الشخصية والأساليب غير الأخلاقية ، التى استخدمتها فى مهارة ، لتحتل هذا الموضع المتميز فى هذا العالم الغامض المثير ..

إنها (مارجريتا جروترود زيللى) ، التى يعرفها العالم كله باسمها المستعار ..

(ماتاهارى) ..

و(ماتاهارى) هذه من مواليد (باتافيا) ، عاصمة جزيرة (جاوة) الإندونيسية ، والتى تعرف منذ استقلال (إندونيسيا) ، باسم (جاكرتا) ، ولقد ولدت فى السابع من أغسطس ، عام 1876 م ، لعائلة بسيطة ، فى ظلّ الاستعمار الهولندى ، وانتظمت فى دراستها

على نحو طبيعى ، دون أن يظهر عليها أى أثر ، أو تعطى أية انطباعات تُشير إلى ذلك الطموح الملتهب المتفجر الذى تشتعل به أعماقها ، وتلتهب به مشاعرها منذ وعت ما حولها وأدركت طبيعة العالم المُحيط بها ..

وفى عام 1893 م ، التحقت (ماتاهارى) ، أو (مارجريتازيللى) بمدرسة المعلمين فى (باتافيا) ، وانتظمت فى دراستها كالمعتاد ، وإن برز طموحها على نحو ملحوظ ، وتمثل فى محاولاتها المستمرة لإقامة علاقات مؤقتة مع رجال الأعمال والضباط الهولنديين ، ثم لم تلبث تلك المحاولات أن أثمرت عن ارتباطها بضابط هولندى شاب ، لم يمض وقت طويل حتى تزوجته وأنجبت منه ابنتها الوحيدة (باندا) ..

وعلى الرغم من قصة الحب العاطفية الملتهبة التى تحدثت عنها (باتافيا) كلها فى ذلك الحين لم تدم العلاقة بين (مارجريتا) وزوجها طويلاً ؛ إذ سرعان ما دبّت بينهما خلافات عنيفة ، كان مبعثها الرئيسى طموحها هى ، وعدم طموح زوجها الذى ارتضى بوظيفته ، ورأى فيها كل الفخر ، ورفض تمامًا أن يتخلى عن رتبته العسكرية أو كيانه الذى يفخر به كضابط فى الجيش الهولندى .

ومع عنف الصراع والخلاف نشب شجار شرس بين (مارجريتا) وزوجها ، اتهم كل منهما الآخر فيه بأنه سبب تعاسته وشقائه ،

فانتزع الضابط ابنته (باندا) وغادر المدينة كلها ، عائدًا إلى أوروبا وهو يقسم أن (مارجريتا) لن ترى ابنتها قط ، مهما طال بها العمر ..

وجن جنون (مارجريتا) مع فقدها لابنتها ، خاصة عندما تأكدت من أن الابنة لم تُغادر (إندونيسيا) مع والدها ، وإنّما تركها هو فى مكان ما ، لترعاها أسرة بديلة ، لم تنجح (مارجريتا) فى التوصّل إليها قط ، على الرغم من الجهد الهائل الذى بذلته ، فى هذا الشأن ..

ولأن (مارجريتا) كانت مولودة من أب هولندى وأم إندونيسية ، فقد اتخذت قرارًا يائسًا بمغادرة إندونيسيا ، كلها ، والهجرة إلى أوروبا .

ولكن العجيب أن (مارجريتا) لم تذهب إلى (هولندا) كما توقع الجميع ..

لقد هاجرت إلى (باريس) عاصمة النور والجمال ، فى عام 1903 م .

ولعام ونصف العام ، عملت (مارجريتا) فى عدة مهن مختلفة ، لم يستقر بها الحال فى إحداها طويلاً ، وكأنّما لا يوجد أى عمل فى الدنيا ، يمكن أن يتناسب مع طموحاتها الكبيرة ، ولهفتها اللامتناهية للحياة والثراء والتميز ..

وفى أوائل عام 1905 م ، استقرت (مارجريتا) على العمل الذى يتناسب تمامًا مع طبيعتها وطموحاتها ..

لقد أصبحت راقصة محترفة ..

ومع ملامحها نصف الشرقية ، وذلك الثعبان الضخم ، الذى تستعين به فى رقصتها ، لم تلبث شهرتها أن بلغت مسامع الجميع فى (باريس) كلها ، مع الاسم الجديد ، الذى اختارته لنفسها ، والذى ما زالت تعرف به ، حتى هذه اللحظة ..

اسم (ماتاهارى) أو (ضوء الصباح) باللغة الإندونيسية ..

وعلى الرغم من أن ذلك العصر لم يكن يتمتع بوسائل الإعلام العديدة التى نعرفها فى عصرنا هذا ، إلا أن شهرة (ماتاهارى) فاقت الآفاق ، على نحو لم يحدث من قبل حتى أن البعض ، من دول أوروبا المختلفة ، كان يسافر إلى (باريس) خصيصًا ، ليشاهد رقصاتها المتميزة ..

وكان من الطبيعى أن يجذب هذا انتباه العديدين .. وبالذات أولئك الذين يبحثون عن أصحاب الشهرة والاتصالات ..

لذا ، ففى مارس عام 1907 م ، وبعد أن انتهت (ماتاهارى) من رقصتها ، وعادت إلى حجرتها الخاصة فى المسرح فوجئت

برجل أشقر وسيم ، يتطلّع إليها بعينين زرقاوين كمياه البحر ، ويحمل على شفتيه ابتسامة لم ترق لها أبدًا ، وهو يقول :

- رائع يا سيّدتى .. لقد تفوقت على نفسك هذه المرة ..

هتفت (ماتاهارى) مذعورة :

- من أنت بالضبط ؟! وكيف دخلت إلى هنا ؟!

أجابها فى هدوء عجيب :

- يمكنك أن تنادينى باسم (رودلف) .

سألته فى عصبية :

- وكيف دخلت إلى حجرتى المغلقة يا سيّد (رودلف) ؟!

تجاهل سؤالها للمرة الثانية ، وهو ينهض إليها ، قائلاً :

- شهرتك بلغت بلادنا يا سيّدتى .. ما رأيك فى قضاء بعض الوقت فى برلين ، حتى يتمتع مواطنونا برقصاتك المدهشة ؟

كانت (ماتاهارى) من الذكاء ، حتى أنها أدركت ، منذ اللحظة الأولى أن السبب الذى ذكره (رودلف) هذا لم يكن صحيحًا ، وإنّما كان محاولة أنيقة ، لإخفاء السبب الحقيقى ، الذى لم تحاول أن تسأله عنه قط ..

ولم ترفض العرض أيضًا ..

كل ما فعلته هو أن استرخت فوق مقعدها الوثير ، وداعبت ثعبانها الضخم ، كما لو كان هرة أليفة ، وهى تتطلّع إلى (رودلف) فى إمعان ، قبل أن تسأل فى هدوء حازم :

- وكم ستدفعون مقابل هذا ؟!

اتسعت ابتسامة (رودلف) ، حتى كادت تشمل وجهه كله ، وهو يُجيب :

- لست أظنّنا سنختلف أبدًا يا سيّدتى ..

ولم تبادله (ماتا) ابتسامته ..

ولكنها سافرت إلى (برلين) ..

وهناك التقت سرًا بواحد من كبار الجنرالات الألمان ، وقضت معه ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة ، لا أحد يدرى ما الذى حدث خلالها بالضبط ..

ولكن من المؤكّد أن هذا اللقاء قد غيّر حياة (ماتاهارى) تمامًا .. وإلى الأبد ..

فمنذ عودتها إلى (باريس) ، بدأت (ماتاهارى) مرحلة جديدة فى حياتها العملية ..

لقد بدأت توطّد علاقاتها بعدد من كبار رجال الأعمال وضباط الجيش ورجال السياسة فى (فرنسا) ، وبعدد من مشاهير الأوروبيين ، الذين يزورون (باريس) ، لمتابعة برنامجها المثير ، الذى تحسن وتطوّر عدة مرات ..

وعلى نحو منتظم ، كان كل ما يرد إليها من أخبار ، يتم نقله عبر وسائل شتى ، على رأسها (رودلف) ، الذى صار يزورها كثيرًا ، باعتباره متعهد حفلات ألمانى هو همزة الوصل بينها وبين المحافل الفنية فى (برلين) ..

وكتطوّر طبيعى ، راحت شهرة (ماتا) تتضاعف وتتزايد وترتفع أكثر وأكثر ، وأخذت علاقاتها واتصالاتها تتضخم على نحو كبير ، حتى لقد قيل : إنها صارت حينذاك أحد مراكز القوة فى (باريس) ..

أو ربّما فى (أوروبا) كلها ..

حتى كان عام 1914 م .

ففى بدايات ذلك العام ، وبعد أن انتهت (ماتا) من رقصتها الشهيرة ، فوجئت بزيارة غير متوقعة من (رودلف) ، الذى وصل قبل موعده بأسبوعين كاملين ، فهتفت به فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟! هل من جديد ؟

أجابها فى سرعة وحزم ، وبلهجته الصارمة المعتادة :

ـ (برلين) تطلب معلومات عاجلة عن الجيش الفرنسى .

سألته ، فى مزيج من اللهفة والحذر :

ـ ولماذا عاجلة ؟!

أجابها هذه المرة فى شراسة غير معتادة :

ـ ليس هذا من شأنك .

لم يرق لها أسلوبه هذا قط ، وشعرت بأنه يحطُّ من شأنها ، إلا أن ذكاءها الفذ جعلها تهضم الموقف ، وتسأله :

ـ ماذا يريدون بالضبط ؟!

أجابها فى حزم :

ـ إنهم يرغبون فى معرفة كل المعلومات الممكنة عن سلاح الفرسان الفرنسى ، وعما إذا كانت هناك اتفاقيات عسكرية خاصة ، بين فرنسا وإنجلترا .

أدركت على الفور أن ألمانيا تستعد لضربة عسكرية كبرى ؛ لذا فقد سألته فى اهتمام :

ـ ومتى يريدون هذه المعلومات ؟!

قال فى سرعة وصرامة :

ـ اليوم لو استطعت .

وهنا تأكد شعورها ، وأدركت أن الأمور ستشتعل بسرعة فى المنطقة ، ولقد دفعها هذا إلى بذل المزيد من الجهد ، للحصول على كل المعلومات المطلوبة ، وكأنها تعمل من أجل وطنها ، وليس من أجل دولة أخرى ..

واشتعلت الحرب العالمية الأولى بالفعل ..

واشتعلت معها لهفة الألمان للحصول على المعلومات والمعارف ..

وكان على (ماتاهارى) أن تبذل جهدًا أكبر .. وأكبر .. وأكبر ..

ولأن (رودلف) لم يعد باستطاعته زيارتها ، فقد صارت عملية نقل المعلومات شاقة وعسيرة .

بل وبالغة الحساسية والخطورة أيضًا ..

ولم تعد (ماتاهارى) تشعر بالأمان والثقة كذى قبل ..

فمع اندلاع الحرب أصبحت السلطات الفرنسية شديدة الحساسية تجاه كل الأجانب ، وصارت العيون كلها مفتوحة ، تُراقب كل التطوّرات ، فى كل المجالات ، بحذر وتحفز واضحين شديدين ..

والتقت (ماتاهارى) بعميل فرنسى ، يعمل لحساب الألمان ، ويحمل اسم (شارل) أصبح همزة الوصل ، بينها وبين (برلين) ، فيملى عليها أوامرهم ، ويحصل منها على ما ينبغى نقله إليهم ، من وثائق ومعلومات ..

ثم فجأة ، وبعد أن اعتادت (ماتا) التعامل معه ، واستعادت شعورها بالثقة والأمان ، سقط (شارل) فى قبضة الأمن الفرنسى ..

وسقط قلب (ماتاهارى) بين قدميها ..

وبسرعة راحت تلملم أوراقها وأشياءها ، وهى تتوقع أن ينقض عليها الفرنسيون فى أية لحظة ، بعد أن يحصلوا على اعتراف (شارل) ، ويعلمون بالعلاقة بينها وبينه .. وعلاقتهما بالعدو الأول ..

(برلين) ..

ولكن الألمان لم يكن لديهم أدنى استعداد لخسارة أفضل عميلة لهم ، فى أوروبا كلها ، لذا فقد قاموا بواحدة من أفضل عملياتهم الخاصة ، خلال الحرب العالمية الأولى وقتلوا (شارل) ..

قتلوه قبل أن يُدلى بأى اعتراف تفصيلى ..

وقبل أن تنطق شفتاه اسم (ماتاهارى) ..

ومرة أخرى ، استعادت (ماتا) شعورها بالأمان والثقة ، وخاصة بعد أن اتصل بها فرنسى آخر ، من أصل هولندى ، وأخبرها أنه أصبح همزة الوصل الجديدة ، بينها وبين (برلين) ..

وعادت الأيام تسير على ما يُرام ، وتصاعدت شهرة (ماتاهارى) ، وتضاعفت أكثر وأكثر ، والحرب تمضى وتستعر ، ونجم ألمانيا يعلو ويعلو ..

حتى عام 1916 م ..

ففى ذلك العام ، وبعد أن بلغت (ماتاهارى) شأنًا لم تبلغه أية راقصة فى التاريخ الحديث ، فوجئت بزيارة من آخر شخص يمكن أن تتوقعه ، فى الكون كله ..

الكولونيل (جان مونت جولفيه) .. أشهر رجال الاستخبارات الفرنسية ، فى ذلك الحين ..

ولم تكن هذه أول مرة تلتقى فيها (ماتاهارى) بالكولونيل (جان) ، إذ كان بينهما لقاء سابق ، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ، إلا أنها ، فى هذه المرة ، لم تكد تراه أمامها حتى هوى قلبها بين قدميها ، وهى تتطلّع إلى وجهه ، الذى حمل تعبيرًا لم يوح بالارتياح قط ..

وبصوت ، بذلت جهدًا خرافيًا ، لتضع فى نبراته أقصى ما أمكنها من ثبات ، سألته :

ـ يا لها من مصادفة سعيدة !! أية رياح طيبة ألقت بك هنا يا كولونيل ؟!

انحنى الفرنسى أمامها نصف انحناءه وهو يقول :

ـ من المؤكّد أنه عطرك الساحر يا سيّدتى .

لم يرق لها قوله ، ولم تشعر بالارتياح للهجته ، فانعقد لسانها فى حلقها ، على غير المعتاد ، ووقفت تتطلّع إليه فى صمت ، عجزت براعتها عن إخفاء ما فيه من توتر وقلق ، على نحو انتقل إلى فراسته الشهيرة ، فاتسعت ابتسامته أكثر وأكثر ، وهو يقول :

ـ نحن نرغب فى التحدّث إليك يا سيّدتى .

انتفض كيانها كله ، وهى تقول :

ـ نحن ؟!

أجابها ، فى شىء من الصرامة :

ـ نعم .. نحن يا (ماتاهارى) .

وانهار كيانها فى أعماقها ، على الرغم من ثباتها الظاهرى ، وهو يصحبها معه فى سيارته إلى مبنى الاستخبارات الفرنسى ، الذى لم يكد تدخله ، حتى أيقنت من أن أمرها قد انكشف ، ومن أن نهايتها قد حانت ولا ريب ، وخاصة عندما انفرد بها الكولونيل (جان) مع رئيسه فى حجرة خالية ، وواجهها الأخير بنظرة صارمة ، قائلاً :

- معلوماتنا تؤكّد أن لك اتصالات كثيرة قوية بمعظم رجال الأعمال والسياسة ، والعديد من ضباط الجيش ، بل والعشرات من مشاهير أوروبا .. أليس كذلك ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فمال الرجل نحوها قائلاً فى حزم مُخيف :

- هل تعلمين ما الذى يعنيه هذا ؟!

هزّت رأسها نفيًا بنفس الصمت ، فتراجع فى حركة حادة ، وهو يُضيف :

- يعنى أنك جاسوسة مثالية .

وهنا لم يكتف قلبها بالسقوط بين قدميها ، وإنّما تمزق فى موضعه بعنف ، وهى تهتف بكل ذعر وشحوب الدنيا :

- أنا ؟! أنا جاسوسة ؟!

أومأ الرجل برأسه فى حزم ، وأشار بيده قائلاً :

- وهذا ما نطلبه منك يا سيّدتى .

قفزت كل دهشتها إلى حنجرتها ، وهى تهتف :

تطلبونه منى ؟!

أجابها الكولونيل (جان) هذه المرة :

- نعم يا سيّدتى .. إننا نطلب منك العمل لحسابنا .

ومن المؤكّد أن دهشة (ماتاهارى) قد بلغت ذروتها فى تلك اللحظة ، حتى انتقلت إلى حافة الذهول ، ولكن من المؤكّد أيضًا أنها قد تماسكت على نحو يدعو للإعجاب ، وهى تتقبل الأمر ، وتُعلن موافقتها على العمل لحساب الاستخبارات الفرنسية ..

والعجيب أن (ماتاهارى) كانت مُخلصة تمامًا فى قولها هذا .. بل وأكثر إخلاصًا من عملها لحساب الاستخبارات الألمانية .. واستكمالاً لتميزها ، صارت (ماتاهارى) أول جاسوسة مزدوجة فى التاريخ ..

كانت تعمل بمنتهى الحماس والإخلاص لحساب الألمان ..

وبمنتهى النشاط والهمة لحساب الفرنسيين ..

ولكن اللعب على الحبلين قد يصلح لبعض الوقت ، فى عالم المخابرات ..

إلا أنه لا يدوم أبدًا .. مهما كانت الأسباب ..

لذا فقد كشفت المخابرات الألمانية أمر (ماتاهارى) وعملها لحساب الفرنسيين أيضًا ، فبدأت تراسلها على نحو مكشوف ، أثار انتباه الفرنسيين وقلقهم ، فبدءوا فى مراقبتها سرًا ..

حتى أثبتوا أنها جاسوسة ألمانية محترفة ..

وأدت (ماتا) أعظم مشاهدها التمثيلية ، وأبرعها على الإطلاق ، عندما ألقى الفرنسيون القبض عليها فى عام 1917 م ، فبكت ، وانهارت ؛ وأنكرت ، واستنكرت ، وثارت ، وغضبت ، وهددت ، وتوسلت ، واسترحمت ، وأشارت إلى تعاونها مع السلطات الفرنسية ..

إلا أن كل هذا لم يُجد قط ..

لقد انكشف أمرها وأصبحت لدى الفرنسيين أدلة دامغة على خيانتها ..

وهكذا تمت محاكمتها ، فى زمن الحرب ..

وصدر الحكم بإدانتها وإعدامها ، باعتبارها جاسوسة ألمانية ..

وفى الخامس عشر من أكتوبر عام 1917 م ، وقفت فرقة من الرماة ، تصوّب بنادقها إليها ، فى ساحة أحد سجون (باريس) ..

وانطلقت رصاصاتهم فى آن واحد ، لتضع نهاية لحياة (ماتاهارى) ..

الجاسوسة ..

أشهر جاسوسة فى التاريخ .

★ ★ ★

الابنـــة ..

على الرغم من الشهرة الواسعة ، والاسم الرنّان ، اللذين تمتعت بهما الجاسوسة (ماتاهارى) فى عالم المخـابرات ، على مر التاريخ ، منذ الحرب العالمية الأولى ، وحتى هذه اللحظة ، لم تحظ ابنتها (باندا ماكلويد) بأدنى اهتمام ، من متابعى ومؤرخى هذا العالم الغامض مع كل ما لعبته من أدوار فى مسرحه ..

و(بانـدا) هى تلـك الابنـة الصغيرة النحيلـة ، ذات الجسد الضئيل الرقيق ، التى تركتها (ماتاهـارى) خلفهـا ، عندمـا غادرت (باتافيا) ، وهاجرت إلى (باريس) عام 1903 م ..

والعجيب أن (باندا) لم تعلم طوال سنوات طفولتها ، أنها ابنة تلك الجاسوسة الشهيرة ، التـى يتحدّث الجميع عنهـا ، فـى المجتمع الإندونيسى ، ويصفونها بصفات يندى لها الجبين ..

فيما عدا والديها ..

أو بمعنى أدق ، الأبوان اللذان تبنياها ..

لقد حرصا طوال الوقت ، على إحاطة (بـاندا) الرقيقة برعايتهما وحنانهمـا ، دون الإشارة إلى أصلها قط ، وهمـا يتصـوّران أن باستطاعتهما حمايتها من ذلك التاريخ الأسود ، المغموس بالعار ،

وفى المجتمع الإندونيسى الصارم ، الذى لن يرحمها قط ، لو علم أنها ابنة تلك الأفعى الشهيرة ..

ولكن (بـاندا) كأيـة فتـاة فـى الدنيا ، خرجت للدنيا ، وتفتح قلبها ، وخفق بالحب ، تجاه الهولنـدى (ويلهيلم فان ديرين) ، الذى غرق بدوره فى حبها ، ثم لم يلبث أن تقدم لخطبتها ، وهـو يتعجل الزواج والارتباط ..

وفى تلك الليلة ، سهر الأبوان طويلاً ، ولم يغمض لهما جفن ، وهما يناقشان ما ينبغى عليهما فعله ، إزاء هذا الموقف ..

وعندما أشرقت الشمس ، كان رأيهما قد استقر علـى قرار ، انفطر له قلبهما ، ولكنهما أدركا ما ينطوى عليه من صواب ؛ لذا فما أن استيقظت (باندا) هاشة باشة ، كعادتها كل صباح ، حتى التقيا بها ، وتنحنح الأب بالتبنى ، قبل أن يقول فى حرج :

- ابنتى العزيزة .. هنـاك أمر كُنا نُخفيه عنك منذ زمن ، ولكن الوقت حان لتعرفيه .

خفق قلب (باندا) ، من فرط القلق ، وهى تسأل :

- أى أمر هذا ؟!

حاول الأب إجابتها ، إلا أن كلماته اختنقت فى حلقه ، فلم تصدر عنه سوى همهمة متحشرجة ، اتسعت لها عينا (باندا) فى ارتياع ، جعل الأم تُسرع قائلة :

ـ أنت ابنتنا بالتبنى .

انتفض جسد (باندا) فى عنف ، وسرت فيه قشعريرة باردة ، كادت تسقط معها فاقدة الوعى ، لولا أن استجمعت شجاعة ورثتها عن أمها ، وهى تسأل :

ـ ابنة من أنا إذن ؟

جاء دور الأم لتعجز عن النطق هذه المرة ، فى حين ازدرد الأب غصته ، واستنفر كل إرادته وقوته ، ليُجيب :

ـ (ماتا هارى) ..

وهوى قلب (باندا) بين قدميها ، وانطلقت من حلقها صرخة استنكار هائلة ، قبل أن تسقط فاقدة الوعى بالفعل ، بين ذراعى والدها بالتبنى ..

ومنذ ذلك اليوم ، انزرع فى قلب (باندا) خوف لا حدود له ..

خوف من أن ينكشف أمرها ، ويعرف جيرانها وزملاؤها أنها ابنة الجاسوسة الشهيرة ، التى لا ينطق اسمها إلا مصحوبًا بالسباب واللعنات ..

وربّما كان هذا الخوف هو الذى دفعها للإسراع بالزواج من (ويلهيلم فان ديرين) ، الذى طار من الفرحة ، وأحاطها بحبه ورعايته ، على نحو أنساها مخاوفها ، وجعلها تستعيد ثقتها بنفسها ، واستقرارها فى بيئتها ..

ولكن القدر شاء أن يحرمها من استقرارها هذا بسرعة ..

وبمنتهى العنف ..

فلم يمض عامان على زواجها من (فان ديرين) ، حتى أصيب هذا الأخير بمرض عضال ، أدى إلى وفاته ، ولم يبلغ الثلاثين من عمره بعد ..

وبعد وفاته بقليل ، اندلعت الحرب العالمية الثانية عام 1939م ..

واستعادت (باندا) كل مخاوفها السابقة ..

بل أضعاف أضعافها ..

وبذعر لا مثيل لـه ، واصلت حياتها على الجزيـرة ، وهـى تخشى فى كل لحظة أن ينكشف أمرها ، ويُدرك الجميع طبيعة الصلة ، التى تربطها بالجاسوسة (ماتاهارى) ..

وفى عام 1940م ، كانت الضربة الكبرى لهـا ، عندما اندفعت الجيوش اليابانية تحتل كل المستعمرات الهولندية والإنجليزية فى (آسيا) ..

ولأن زوجها قد ترك لها ثروة لا بأس بهـا ، فقد انهمكت فى دراسة الآداب والفنون ، كمحاولة لكتمان مخاوفها ، ثم لـم يلبث جمالها وسحرها أن امتزجا مع ثقافتها ، فتحولت إلى شخصية مرموقة ، جذبت إليها صفوة المجتمع ، من فنانين ومُفكرين وأُدباء ، بحيث تحول منزلها إلى صالون أدبى ، يجتمع فيه صفوة مجتمع (باتافيا) وتدور فيه المناقشات ، حول الأدب والفن والسياسة أيضًا ..

ولكن صفوة المجتمع هذه لم تلبث أن فرّت من الجزيرة كلها ، مع وصول جحافل اليابانيين ، الذى تحول جنرالاتهم الغلاظ إلى صفوة جديدة ، احتلت موقع الصفوة الأوروبية السابقة ..

وتقلص صالون (باندا) التى عادت تشعر بالقلق ، واستعادت كل مخاوفها ، الخاصة بكونها ابنة (ماتاهارى) ..

فلقد أصبح الوضع بالغ الخطورة بالفعل ..

اليابانيون سيعتبرونها نصف هولندية ، لأنها ابنـة هولنـدى ، وأرملة هولندى ، وسينبذونها فى غلظة وقسوة .

ولـو انكشف أنها ابنـة (ماتاهارى) سـيبغضها الهولنديـون والأوروبيون أيضًا ، وسينظر إليها الإندونيسيون باحتقار ..

ولأن هذا لم يحدث ، فقد راحت (باندا) تهدأ رويدًا رويدًا ، وعاد ذلك الشعور بالثقة والاستقرار يتسلل إلى أعماقها ثانية ، فأُضيئت صالوناتها مرة أخرى ، وراحت تضم إليها فلول الأوروبيين ، ومن تبقى من مفكريهم وأدبائهم ، بالإضافة إلى نخبة من اليابانيين وجدت فى الانضمام إلى صالونها الأدبى فرصة مثالية ، لكسب ثقة ذلك المجتمع الباتافى ، والتوغل فيه فى الوقت ذاته ..

وتصوّرت (باندا) أن كل شىء سيسير على ما يُرام ، وأن سرّها قد دُفن فى أعماق الزمن إلى الأبد ، وتحلل وتلاشى ، ولن يُبعث إلى الحياة ثانية قط ..

حتى كان ذلك اليوم ، من أيام عام 1943 م ..

كانت درجات الحرارة قد بلغت ذروتها ، فى الثالثة ظهرًا ، وخلت شوارع المدينة أو كادت ، عندما سمعت (باندا) طرقات حادة على باب منزلها ، ثم سمعت صوتًا خشنًا يقول لخادمتها :

ـ أريد مقابلة السيِّدة (باندا) الآن .

وعندما سألته الخادمة عن اسمه ، أجاب فى غلظة ، لم يكن لها ما يبررها :

ـ أخبريها أن اسمى هو (زيللى) .

ولم تكد (باندا) تلتقط الاسم ، حتى هوى قلبها بين قدميها ..

وبمنتهى العنف ..

فاسم (زيللى) هذا كان اسم عائلة والدتها (مارجريتا جروترود زيللى) ، الشهيرة باسم (ماتاهارى) ..

وكان استخدام الزائر لاسم (زيللى) يعنى أنه يعرف الحقيقة ..

كل الحقيقة ..

وبجسد ارتجفت كل خلية من خلاياه ، استقبلت (باندا) الرجل ، وهى تُدرك جيدًا أن ملامحه الأوروبية ، وصلفه وغلظته ، تعنى أنه جاء ليفرض سيطرته على نحو أو آخر ..

ومما أكد لها صدق حدسها ، أن الأوروبى البدين لم يحاول النهوض لتحيتها ، عندما أقبلت عليه ، كما ينبغى أن يفعل أى شخص مُهذب ؛ وإنما قال فى تحدٍّ :

ـ اسمى (زيللى) وهذا يعنى أننا أقارب .. أليس كذلك ؟!

ازدردت (باندا) لعابها فى صعوبة ، وهى تسأله :

ـ ماذا تُريد منى بالضبط ؟

نهض مجيبًا فى وقاحة :

ـ أمك كانت عمتى .

رددت ، وهى تكاد تسقط فاقدة الوعى :

ـ أمى ؟!

ابتسم ابتسامة فظة بغيضة ، وهو ينظر إلى عينيها مباشرة ، مُجيبًا :

نعم .. أمك يا سيِّدة (فان ديرين) .. (ماتاهارى) .

ولم يسقط قلبها بين قدميها هذه المرة ، فقد كان مستقرًا هناك بالفعل ، وإنّما عجزت ساقاها عن حملها ، فتركت جسدها يسقط على أقرب مقعد إليها ، وقد شحب وجهها ، حتى حاكى وجوه الموتى ..

واتسعت ابتسامة الرجل ، وحملت ظفرًا واضحًا ، وراح يهوِّى وجهه بقبعته ، وهو يقول :

ـ دعينا لا نُضيع وقتنا يا (باندا) .. الواقع أننى هنا لأخبرك أن جهاز المخابرات اليابانى (الكمبتاى) يعلم كل شىء عنك .

ازداد شحوبها ، وتصورت أن قلبها سيتوقف ، من شدة الخوف ، قبل أن يُضيف ذلك الأوروبى البغيض :

ـ إنهم يريدونك أن تعملى لحسابهم .

هتفت ذاهلة مستنكرة :

ـ أنا ؟! أنا أعمل لحساب اليابانيين ؟!

هزّ كتفيه المكتظين فى لامبالاة ، وهو يقول :

ـ وماذا فى هذا ؟! أمك عملت لحساب الألمان ، وهم حلفاء اليابانيين الآن ..

والواقع أن (باندا) لم يكن لها الخيار فى الرفض والقبول فعليًا ؛ لذا وافقت على العمل لحساب (الكمبتاى) مضطرة ، وخضعت لأوامر الأوروبى بضرورة مقابلة ضابط المخابرات اليابانى ، الذى تعامل معها فى هدوء أكثر ، وقال فى بساطة :

ـ لسنا نُطالبك بالكثير .. كل ما نُريده منك هو أن تفتحى أذنيك جيدًا ، أثناء صالونك الأدبى .. لاحظى طبيعة ضيوفك وأحاديثهم ، فإذا ما شعرت أن أحدهم يتهور ، أو يعرض نفسه للقيل والقال ،

أبلغينا بأمره ، وسنعمل على حمايته من نفسه ، قبل أن يتورط فى أمر ، لا تُحمد عقباه .

والعجيب أن (باندا) قد صدّقته ..

ونفذت ما طلبه منها عن اقتناع ..

وبإخلاص ، أبلغت (باندا) ضابط (الكمبتاى) عن صديقها رجل الأعمال السويسرى (جالاتى) وعالم الآثار اليونانى (هليموس) والقنصل الدانماركى (لندكويست) الذى أبلغها ذات ليلة أنه يستغل وضعه الدبلوماسى ، ليُرسل بعض المعلومات عن الجيش اليابانى للبريطانيين ..

ووسط كل هذا ، وقعت (باندا) فى حب جديد ..

لقد أحبت الكولونيل (عبد الله) قائد الحرس الوطنى الإندونيسى ، الذى أنشأه اليابانيون ، كبديل للشرطة ، والذى يصغرها باثنى عشر عامًا كاملة ..

وعلى الرغم من وسامته وشخصيته الساحرة الجذّابة ، فقد وقع (عبد الله) أيضًا فى حبها ، على نحو لم يعرفه أيهما من قبل قط ..

ولكن فجأة ، تفتحت عيناها على حقيقة مفزعة ..

كل أصدقائها ، الذين أبلغت عنهم اليابانيين ، تم اغتيالهم ، أو تعرضوا لحوادث عنيفة قاتلة ، على نحو أو آخر ..

وانهارت (باندا) ، وحاولت الانتحار ، فى ديسمبر 1943 م ، ولكن الكولونيل (عبد الله) ، أنقذها فى اللحظة الأخيرة ، وهتف بها :

ـ هل جننت يا (باندا) ؟! كيف تفعلين هذا بنفسك ؟!

ولأنها تحبه بصدق ، وجدت (باندا) نفسها تنهار بين ذراعيه ، وتقص عليه الحقيقة كاملة ، دون أن تُخفى منها شيئًا ..

وفى صمت وانتباه كاملين ، ودون أن يقاطعها بحرف واحد ، استمع إليها (عبدالله) حتى انتهت من حديثها ، وجففت دموعها ، ثم سألها فى اهتمام :

ـ أأنت نادمة على ما فعلت حقًّا يا (باندا) ؟!

وعندما أجابته بالإيجاب ، مال نحوها ، يسألها فى اهتمام أكثر ، وهو يتطلَّع إلى عينيها مباشرة :

ـ وهل ترغبين فى الانتقام من اليابانيين ؟!

هتفت بكل انفعالاتها :

ـ بكل تأكيد .. إننى أتمنى تدميرهم عن آخرهم .

وفى هذه المرة لم ينبس (عبد الله) ببنت شفة ، وإنَّما تراجع فى بطء ، وعيناه تحملان نظرة غامضة ، لم تفهمها فى حينها قط ..

وفى الأيام التالية ، أصبح (عبد الله) أكثر غموضًا ، وكأنَّما يُعيد دراستها من جديد ، أو ينظر إليها نظرة تختلف عن سابقتها ..

ولم تفهم (باندا) ما يعنيه كل هذا الغموض إلا بعد عدة أشهر ، وبالتحديد فى منتصف عام 1944 م ، عندما صارحها الكولونيل (عبد الله) بأنه يتزعم منظمة سرية خاصة ، مناهضة لليابانيين ..

وبكل الحماس والصدق ، انضمت (باندا) إلى تلك المنظمة الخاصة ، وراحت تضرب اليابانيين تحت الحزام ، وهى تتظاهر بالعمل لحسابهم ..

وعندما هبط البريطانيون على الجزيرة ، فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت لديهم معلومات دقيقة عن الجيش اليابانى وتشكيلاته وفرقه هناك ..

وكل هذا بفضل (باندا ماكلويد) ابنة (ماتاهارى) الجاسوسة الألمانية الشهيرة .

وانتهت الحرب ، وانتهى معها صراع الإندونيسيين ضد اليابانيين ، وبدأ صراعهم مع المحتل الجديد ..

الهولنديين ..

ولثلاث سنوات أخرى ، ظلّت (باندا) تعمل لحساب منظمة (عبد اللـه) حتى كان ذلك اليوم ، فى عام 1948 م ، عندما زارها كولونيل أمريكى ، ليبلغها أن (عبداللـه) قد استشهد فى الحرب ، ثم ليطالبها ، قبل حتى أن تنهمر دموعها ، بأن تعمل لحساب جهاز المخابرات الأمريكى الوليد ، الذى يغرس قواعده الأولى ، فى كل مكان فى العالم الجديد ..

عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ..

ومن المؤكّد أن (باندا) قد قبلت العرض الأمريكى لسبب ما ..

ربّما لأنها اكتشفت أن ذلك البدين (زيللى) يعمل لحسابهم الآن ، وأنه قد أخبرهم أنها ابنة (ماتاهارى) ..

المهم أنها ظهرت فيما بعد ، كعضو فى منظمة الإغاثة الدولية فى (شنغهاى) ثم لم تلبث أن تخلّت عن هذه الوظيفة ، وعن

منظمة الإغاثة الدولية كلها ، وقبلت وظيفة متواضعة كساقية فى بار بسيط ، فى مدينة (شنغهاى) نفسها ..

ومن المُرجح أن هذه الخطوة كانت مدروسة تمامًا ، من قبل الأمريكيين ، ولم تكن نوعًا من التمرد من قبل (باندا) كما أوحت كتبهم ومذكراتهم ..

هذا لأن البار ، الذى كانت تعمل فيه (باندا) كان هو المقر السرى لجهاز المخابرات السوفيتى (كى . جى . بى) فى (شنغهاى) ، وكانت (باندا) تنقل كل ما تحصل عليه من معلومات منه إلى الأمريكيين ، الذين اعتبروها واحدة من أفضل جواسيسهم فى المنطقة ، وأطلقوا عليها اسم (زهرة الشمس) فى تعاملاتهم السرية ..

وفى نشاط جم ، راحت (باندا) تتنقل من (شنغهاى) إلى (شنج كنج) إلى (مالينج سونج) الكورية ، لتنقل فى كل مرة أخبارًا بالغة الأهمية والخطورة ..

ثم فجأة ، وفى عام 1950 م ، اختفت (باندا ماكلويد) تمامًا ، دون أن يظهر لها أدنى أثر ، أو تُرسل أية معلومات جديدة ..

وشعر الأمريكيون بقلق بالغ ، إزاء هذا الأمر ، وتعاون معهم ضابط مخابرات بريطانى باسم (هورس) فى البحث عنها دون جدوى لعدة أشهر ..

وفجأة أيضًا ، فى أوائل عام 1951 م ، وبعد ستة أشهر كاملة من البحث والتقصّى ، فوجئ (هورس) بضابط سابق فى جيش (روسيا) البيضاء ، يُدعى (جوزيف ميخاليسكى) يطلب مقابلته فى إلحاح ، وعندما رفض مساعدوه أن يسمحوا له بالمقابلة ، أخبرهم أنه أتى بشأن (باندا ماكلويد) ..

وبسرعة ، التقى (هورس) بالروسى (ميخاليسكى) الذى نقل إليه أسوأ خبر ، كان يتمنى سماعه ، فى تلك الفترة ..

لقد وقعت (باندا) فى قبضة السوفيت الذين عرضوا عليها العمل لحسابهم ، بعد أن انكشف أمرها ، إلا أنها رفضت هذا العرض تمامًا ، وهى تقول مؤكَدة فى استسلام :

ـ لم يعد باستطاعتى الاستمرار ..

كانت تعلم جيدًا أن رفضها سيعنى موتها ، وعلى الرغم من هذا فقد أصرّت على الرفض ، وكأنها قد سئمت هذه اللعبة إلى الأبد ..

أو سئمت الحياة نفسها ، فى ظلّ صراع لا يهدأ أو ينتهى ..

ولقد كانت (باندا) على حق ..

الموت كان الثمن الحتمى لرفضها العمل لحساب السوفيت ..

لذا فقد تم إعدام (باندا ماكلويد) فى سرية تامة ، فى مكان وزمان لم يعرفهما ـ ولفترة طويلة جدًا ـ سوى السوفيت أنفسهم ..

وهكذا أُسدل الستار على قصة حياة جاسوسة جديدة فى هذا العالم المُثير ..

جاسوسة جاءت شهرتها من كونها ابنة ..

ابنة أشهر جاسوسة فى التاريخ ..

* * *

سياسة الجواسيس ..

التهب الموقف ، على نحو لم يسبق له مثيل ، فى منتجع (واى بلانتيشن) ، بولاية (ميريلاند) الأمريكية ، وبدا رئيس الوزراء الإسرائيلى فظًا غاضبًا كعادته ، وهو يضع العراقيل ، الواحد بعد الآخر ، أمام اتفاقية السلام ، التى حضر خصيصًا لتوقيعها مع الرئيس الفلسطينى ، فى حضور ، وتحت رعاية رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ..

وخارج قاعة الاجتماعات ، التى جمعت أفضل وأقوى ساسة الأطراف الثلاثة ، كان العالم كله يترقب فى لهفة واهتمام ما سيحدث ، بعد أن أدت السياسة الاستفزازية الإسرائيلية إلى تفاقم الموقف ، واحتدام الصراع ، وتصاعد حوادث الإرهاب والعنف ، فى الأرض المحتلة ..

ولأن الأخبار الساخنة لا يمكن احتجازها أبدًا ، خلف الأبواب المغلقة ، فقد تسربت أنباء حول التعنت الإسرائيلى ، والضغوط الأمريكية ، والغضب الفلسطينى ، على نحو احتبست له أنفاس الجميع ، وجعلهم يتصوّرون أن أبواب القاعة ستنفتح لتعلن أمامهم سقوط آخر محاولة للسلام ، وبدء عهد جديد من الغضب

والعنف والثورة فى المنطقة ، على نحو لا يدرى سوى الله (سبحانه وتعالى) إلى أين يمكن أن يمضى !

وكيف ؟!

أما داخل القاعة نفسها ، فقد بذلت الإدارة الأمريكية قصارى جهدها ، واستخدمت كل الضغوط الممكنة ، فى محاولة لإقناع الطرفين بتوقيع الاتفاق ، الذى يمكن أن يمنحها نقطة زهو ، قد تخفى أو تفوق فضائحها القريبة ، التى بلغت حدًا أزكم الأنوف ، على نحو لم تبلغه أية إدارة أمريكية سابقة ..

ولأن الأمريكيين كانوا يصرون على عدم فشل المفاوضات ..

ولأن رئيس الوزراء الإسرائيلى أدرك فى النهاية ، أن كل تعنتاته لن تجدى لمنع الوصول إلى عقد الاتفاق ، فقد رضخ لمعظم الضغوط الأمريكية ، إلا أنه وقف فجأة ؛ ليقول فى صرامة عصبية :

ـ قبل أن أعلن موافقتى النهائية ، لنا شرط هام للغاية .

سأله الرئيس الأمريكى فى قلق :

ـ وما هو ؟!

حاول رئيس الوزراء الإسرائيلى أن يشد قامته الضئيلة ، وهو يقول فى حدة :

(بولارد) .. نُريد (جوناثان بولارد) .

وكانت مفاجأة للجميع ..

مفاجأة حقيقية ..

فوسط أصعب موقف سياسى ، وأعقد محاولة لتحقيق اتفاق إسرائيلى فلسطينى فى ظلّ سياسة رئيس الوزراء الإسرائيلى المتعنتة ، ومع كل التعقيدات الواردة ، تبرز فجأة قضية (بولارد) !!

الجاسوس اليهودى (جوناثان بولارد) ، المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة بتهمة استغلال موقعه الحسّاس ، للتجسس لحساب (إسرائيل) ، وإمدادها بمعلومات ووثائق بالغة الأهمية والخطورة ..

والواقع أن ذلك المطلب الإسرائيلى ، بغض النظر عن عامل المفاجأة ، لم يكن بسيطًا أو هينًا على الإطلاق ، بالنسبة للإدارة الأمريكية ..

أو للشعب الأمريكى كله ..

صحيح أنه ليس أوّل من تجسس على الولايات المتحدة الأمريكية ، لحساب (إسرائيل) ، على الرغم من التحالف الواضح والمعروف بينهما ، إلا أنه كان ولا شك ، أكثرهم أهمية وخطورة ..

فالجاسوس (جوناثان بولارد) كان يعمل كمحلل للبيانات ، فى إدارة المخابرات العسكرية ، التابعة للبحرية الأمريكية ..

وبحكم موقعه ، كانت تجرى بين يدى (بولارد) عشرات ، بل مئات الوثائق العسكرية ، وصور أقمار التجسس الصناعية الأمريكية ، التى تجوب العالم كل دقيقة ، وتلتقط ملايين الصور سنويًا ، لأنظمة الدفاع فى معظم دول العالم ..

وعلى الرغم من أن المخابرات العسكرية الأمريكية لا يمكن أن تلحق أحدًا بعمل كهذا ، إلا بعد تحريات كثيرة وواسعة النطاق ، حتى تتأكّد من أنه لا يحمل نقاط ضعف واضحة ..

وعلى الرغم من أن (بولارد) لم يكن بالفعل مقامرًا أو سكيرًا ، أو مغرمًا بالعلاقات النسائية المتعددة ، مما أهّله للعمل فى موضع شديد الحساسية والخطورة كهذا ، إلا أن كل ذلك لم يكن يعنى أنه لا يُعانى من أية نقاط ضعف ..

بل لقد كانت فى حياته نقطة ضعف خطيرة للغاية ..

نقطة الضعف ، التى تسللت إليه منها المخابرات الإسرائيلية ..

فقد كان (بولارد) .. يهوديًا ..

وكان هذا أوّل ما رصدته المخابرات الإسرائيلية بشأنه ، وهى تفحص ملفه ..

وآخر ما رصدته أيضًا ..

وذات ليلة ، وبينما كان (بولارد) فى طريق العودة إلى منزله ، بعد ليلة مرهقة فى العمل ، فى إدارة المخابرات العسكرية الأمريكية ، فوجئ برجل قصير القامة ، أصلع الرأس ، يستند إلى سيارته ، على نحو يوحى بأنه يُعانى من دوار أو غثيان عنيف ..

وفى توتر ، تقدم (بولارد) نحو الرجل ، قائلاً :

- سيّدى .. هل يمكنك أن تبتعد عن سيارتى ؟!

اعتدل الرجل فجأة ، بطريقة توحى بالنشاط والصحة ، وهو يتطلّع إليه مباشرة ، ويسأله :

- (جوناثان بولارد) .. أليس كذلك ؟!

بهت (بولارد) للموقف ، وحدّق فى الرجل لحظة ، قبل أن يتراجع ، قائلاً فى حذر :

- بلى .. أنا هو .. من أنت ؟!

ارتسمت على شفتى الأصلع ابتسامة صفراء ، وهو يُجيب :

- أنا واحد من بنى جنسك يا سيّد (بولارد) .

سأله (بولارد) فى حذر أكثر :

- من بنى جنسى ؟! ماذا تعنى يا رجل ؟!

اقترب منه الرجل ، حتى اخترقت رائحة أنفاسه ، الممتزجة برائحة التبغ العطن أنف (بولارد) ، وهو يُشير إلى ما خلف ظهره بلا معنى ، مُجيبًا :

- أعنى أننى من هناك .. من الوطن الأصلى .

سأله (بولارد) فى عصبية :

- أى وطن أصلى ؟!

أجاب الرجل ، وهو يقترب أكثر وأكثر :

- (إسرائيل) ..

انزعج (بولارد) فى البداية ، مع سماعه الاسم بغتة ، إلا أن شيئًا ما فى يهوديته ، جعله يشعر بقليل من الاطمئنان ، وهو يردد :

- (إسرائيل) ؟!

قرأ الرجل ردود أفعاله ، فى عينيه وملامحه وصوته ، مما شجّعه على أن يقول :

- نعم يا سيّد (بولارد) .. (إسرائيل) التى تحتاج إلى خدماتك .

بهت (بولارد) وهو يهتف :

ـ خدماتى أنا ؟!

اتسعت ابتسامة الرجل ، وهو يُجيب :

ـ بالطبع يا سيّد (بولارد) .. يبدو أنك تجهل أهميتك لدينا .

كان هذا مجرّد تعارف فى البداية ، وبعده دار حديث قصير ، بين (جوناثان بولارد) ورجل المخابرات الإسرائيلى ، إلى جوار سيّارة الأوّل ، ثم استقل الاثنان السيّارة ، وانطلقا بها إلى مقهى بعيد ، فى أطراف المدينة ، حيث اتخذا منضدة معزولة فى الركن ، وراحا يتبادلان الحديث ، حتى منتصف الليل تقريبًا ، قبل أن ينصرف (بولارد) وحده بسيارته ، ويبقى الإسرائيلى فى المقهى ، وكأنه فى انتظار شخص آخر ..

ولا أحد يدرى ، أو يمكنه الجزم ، بما دار بين الرجلين ، طوال هذه الساعات ، ولكن المؤكّد أن الإسرائيلى قد ظلّ طوال الليل يعزف على الوتر الوحيد فى قيثارته التقليدية القديمة ..

يهودية (بولارد) ..

ومستقبل (إسرائيل) ..

والوطن القومى ..

و ... و ... و ...

والعجيب أن (بولارد) لم يكد يصل إلى منزله ، حتى روى كل ما حدث لزوجته ، التى كانت على خلافه تمامًا ، متخمة بنقاط الضعف ..

ولأن الأمر كان يضم فيما يضم ، الكثير من الدولارات ، التى تعنى بدورها منزلًا أكبر ، وسيّارة أكثر فخامة ، وثيابًا ، ومجوهرات .. إلخ .. إلخ .. فقد استقبلت زوجته الأمر بلهفة حقيقية ، وشجعته على التعاون مع أبناء الوطن الأم ، على الرغم مما فى ذلك من خيانة للوطن الفعلى ، الذى يحملان جنسيته ، وينعمان بخيره ..

ومنذ اليوم التالى مباشرة ، وقبل أن يحصل حتى على التدريبات اللازمة ، بدأ (بولارد) يحصل على صورة من كل وثيقة أو تقرير يقع تحت يده ..

وكانت كمية المعلومات هائلة ، حتى إن الإسرائيليين قد شعروا بالذعر والفزع ، وأرسلوا يطلبون من جاسوسهم التوقف ، حتى يتعلم كيف لا يكشف أمر نفسه ، مع كل ما يحصل عليه ..

وهكذا ، وفى أوّل إجازة له ، سافر (جوناثان بولارد) إلى (إسرائيل) للسياحة ، ولرؤية حائط المبكى ، كما أخبر أصدقاءه وجيرانه ..

وفى (إسرائيل) ، استقبله رجال المخابرات الإسرائيلية فى ترحاب ، وتم إخضاعه لبرنامج تدريبى مُكثف على الفور ..

ولأن عقلية (بولارد) كانت متفوقة بالفعل ، فقد استوعب برنامج التدريب بسرعة ، وعاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية بخبرات جديدة ، جعلته قادرًا على الحصول على المزيد من الوثائق وصور أقمار التجسس ، التى بلغت عدة آلاف ، خلال عام واحد فحسب ..

ومع تدفّق الأموال ، راحت زوجة (بولارد) تحوّل كل أحلام حياتها السابقة إلى حقائق ، فى لهفة وسعادة ، تفتقران إلى الرويّة والحكمة ..

وخلال أشهر قليلة ، لاحظ الأصدقاء والجيران أنها قد ألقت خلفها صورة الزوجة الأمريكية التقليدية ، وتقمصت شخصية نجوم السينما ، فى زيها وزينتها ، وأسلوبها ، وحتى أنواع العطور الفاخرة ، التى تفوح منها طوال الوقت ..

أما (بولارد) نفسه ، فلم يظهر عليه أى تغيير يُذكر ..

لقد ظلّ يرتدى ثيابه نفسها ، ويقود السيّارة البسيطة ، التى اعتاد الذهاب بها إلى عمله كل صباح ..

وظلّ فى الوقت ذاته يرسل كل ما يقع تحت يديه إلى المخابرات الإسرائيلية ..

بلا استثناء ..

ولأن الرجل قد أبدى تعاونًا جمًا ، فقد رأى ذئاب المخابرات الإسرائيلية أنه يستحق مكافأة سخية ..

ودورة تدريبية جديدة ..

لذا ، فقد سافر (بولارد) مرة أخرى إلى (إسرائيل) ..

وكما حدث فى المرة السابقة ، استقبله رجال المخابرات الإسرائيلية بترحاب كبير ، ونقلوه على الفور إلى المنزل الآمن ، الذى سيتلقى فيه تدريباته الجديدة ..

وأثبت (بولارد) تفوقًا ، فى هذه المرة أيضًا ..

واجتاز الدورة التدريبية الثانية ، فى سرعة وبراعة ..

وعندما عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى هذه المرة ، كان يحمل لقب (جاسوس ممتاز) ..

ويحمل أيضًا خمسين ألف دولار ..

وجن جنون زوجته بهذه الثروة ، ولم تتمالك نفسها من الرقص طوال الليل احتفالا بها ، ولم تكد تشرق الشمس ، وتفتح المتاجر أبوابها ، حتى كانت أوّل من يعبر هذه الأبواب ، لتبدأ فى إنفاق ما لديها ..

كان من الطبيعى أن يجذب هذا الثراء المفاجئ انتباه البعض ..

وخاصة المباحث الفيدرالية الأمريكية ..

فعلى الرغم من أن (بولارد) نفسه ظلّ كما هو ، دون أن يظهر عليه أثر للثراء ، فإن زوجته كانت تلقى عشرات التساؤلات خلفها ، وهى تمضى فى رحلة الأناقة والفخامة ، دون أن تنظر خلفها ..

بدأت المباحث الفيدرالية الأمريكية رحلة البحث ..

وراحت الحقائق تتكشف واحدة بعد الأخرى ..

وذات ليلة ، وبعد أن حصل (بولارد) على صور عشرات الوثائق ، وتسجيلات أقمار التجسس ، وبينما كان يستعد للعودة إلى منزله ، استوقفه رجل ضخم الجثّة ، متين البنيان ، يقول فى صرامة :

ـ سيّد (بولارد) .. لدىّ ما أتحدث معك بشأنه .

سأله (بولارد) فى عصبية :

ـ ماذا تريد ؟!

وضع الرجل يده على كتف (بولارد) فى قوة وصرامة ، وهو يقول :

ـ أنت موقوف ، بتهمة التجسس على وطنك (أمريكا) ، لحساب (إسرائيل) .

وأسقط فى يد (بولارد) ، ولم يستطع النطق بحرف واحد ، فى حين برز عدد آخر من الرجال ، فى كل مكان حوله ، وأطبقوا عليه ، وحملوه حملاً إلى سيّارة سوداء كبيرة ، انطلقت به على الفور إلى مقر المباحث الفيدرالية الأمريكية ..

وما إن بلغ (بولارد) المكان ، حتى كانت عقدة لسانه قد انحلت ، فالتقط أنفاسه ، وبذل جهدًا ليبدو هادئًا متماسكًا ، وهو يقول :

ـ دعونا لا نُضيع وقتًا أيها السادة .. نعم .. أعترف أننى أتجسس لحساب (إسرائيل) .

وعندما سأله أحدهم :

ـ ولماذا تخون وطنك (أمريكا) ، من أجل (إسرائيل) ؟

شدّ (بولارد) قامته ، وأجاب :

ـ لأننى يهودى ، وهذا واجبى .

كان يتحدّث بمنتهى الثّقة ، وقد راوده شعور بأن الإسرائيليين سيسارعون إلى نجدته ، فور سماعهم بسقوطه ..

زوجته أيضًا تصورّت هذا حتى إنها لم تكد تعلم بسقوطه ، حتى أسرعت إلى الهاتف ، واتصلت بالسفارة الإسرائيلية ، تستغيث بها لإنقاذ زوجها ..

وكان هذا الاتصال ، الذى سجلته المباحث الفيدرالية الأمريكية (رسميًا) ، أحد الأدلة القوية ، التى استندت إليها فى المحاكمة ، لإثبات تجسس (بولارد) ..

ولفترة طويلة ، ظلّ (بولارد) على ثقته من أن (إسرائيل) لن تتخلى عنه ، حتى فوجئ بأنها تلتزم الصمت التام ، وبأن رئيس وزرائها حينذاك (إسحاق شامير) ينفى أية علاقة لبلده بالجاسوس (بولارد) ..

ثم كانت المفاجأة الكبرى ، عندما صدر الحكم ضده بالسجن مدى الحياة ..

عندئذ جن جنون (جوناثان بولارد) ، وراح يتهم (إسرائيل) علنًا بأنها قد ورطته فى كل هذا ، وبأن رئيس وزرائها بنفسه كلّفه بالحصول على تلك الوثائق ، التى لم تكن هناك وسيلة أخرى للحصول عليها ..

ولكن ثورته وغضبه لم يجديا ، ولم تجد أيضًا كل محاولات اللوبى اليهودى ، الذى قاد حملة مستترة لإطلاق سراحه ، أو تخفيف الحكم عليه ..

وتم نقل (بولارد) إلى السجن ، ليمضى فيه ما تبقى فى حياته ..

ولكن هذا لم يغلق القضية ..

فبعد عدة سنوات ، وأثناء المباحثات بينه وبين الرئيس الأمريكى السابق (جورج بوش) حاول (إسحاق شامير) إقناع (بوش) بالإفراج عن (بولارد) ، إلا أن الرئيس (بوش) رفض النظر فى أى طلب إسرائيلى فى هذا الشأن بل ورفض حتى أن يوضع هذا الأمر كمادة فى المباحثات ..

لذا ، فقد ظلّ (بولارد) فى سجنه لسنوات طوال ، يوجه اتهاماته للإسرائيليين بتوريطه فى هذا الأمر ، ويُعانى من الازدراء والاحتقار ، اللذين يُعامل بهما السجناء الآخرون ، الذين حوكموا بتهم تتراوح بين القتل وترويج المخدرات ، إلا أن كلا منهم لا يزال يرى أن خيانة الوطن أكثر جُرمًا وفداحة ..

وفى العام الأخير ، رفضت (مادلين أولبرايت) ، وزيرة الخارجية الأمريكية طلبًا من أربعين عضوًا ، من أعضاء الكنيست الإسرائيلى ، للنظر فى الإفراج عن (بولارد) ..

وقبل مفاوضات (واى بلانتيشن) بشهر واحد ، رفضت الإدارة الأمريكية بحزم طلبًا إسرائيليًا بالإفراج عن الجاسوس ، وقال المتحدث باسمها فى صرامة حازمة :

ـ موقفنا لم ولن يتغير ، بشأن هذا الجاسوس .. لقد كان يُدرك ما هو مُقدم عليه ، فليدفع الثمن إذن ..

لذا ، فقد رأى رئيس الوزراء الحالى أن يضع قضية (بولارد) كنقطة ضغط أخيرة ، على الإدارة الأمريكية ..

ولكن يبدو أننا لن نُدرك أبدًا ما دار خلف الأبواب المغلقة .. ولا طبيعة العلاقة ، التى تربط السياسة بالجواسيس ..

ففى النهاية ، وعلى الرغم من أنه لم يحصل على وعد قاطع بالإفراج عن (بولارد) ، وقع رئيس الوزراء الإسرائيلى الاتفاقية ..

ثم عاد ، واتهم (أمريكا) بالخيانة ، وبخداعه بشأن (بولارد) ..

وبعدها راح يُماطل ويُسوّف ، ويضع العراقيل الجديدة ، أمام عملية التنفيذ ..

كل هذا ، ولا يزال (جوناثان بولارد) فى سجنه ، يتساءل عمّا ستسفر عنه الأمور ، وعمّا إذا كانت السياسة هى الأمل الأخير فى خروجه من المأزق ، الذى وضعته فيه المخابرات الإسرائيلية ..

والذى وضع فيه نفسه ، بدافع منها ..

ولا يزال هناك الكثير ، الذى يدور خلف الأبواب المغلقة ..

الأبواب التى تخفى العديد من قضايا السياسة ..

والجواسيس ..

★ ★ ★

روميو وجوليت ..

لم يكد القطار القادم من (روما) يتوقّف فى (باريس) ، فى ذلك الصباح الدافئ ، من مارس 1939 م ، حتى قفز المصوّر الفوتوجرافى (روميو سيلافيو) من مقعده مذعورًا ، وكأنّما استيقظ على التوّ من نوم عميق ، وهتف بالراكب الجالس أمامه فى المقصورة :

ـ هل .. هل وصلنا إلى (باريس) ؟!

نطقها بفرنسيةٍ ركيكة للغاية ، جعلت الجالس يمط شفتيه فى شىء من الضيق ، وهو يُتمتم فى ضجر واقتضاب :

ـ نعم .

كان من الواضح أن صحبة ذلك المصوّر الشهير ، الذى تزخر صحف ومجلات (إيطاليا) بصوره الرائعة ، لم تكن ممتعة على الإطلاق ، وأنها قد أضجرت رفيق مقصورته إلى حد رهيب ، حتى أنه أسرع يلتقط حقيبته ، ويُغادر القطار كله ، وكأنّما يخشى لو أبطأ قليلاً ، أن يلحق به الإيطالى ، ويواصل صحبته المملة ..

أما (روميو) ، فقد ارتبك بحقائبه الثلاث الضخمة ، وراح يحمل إحداها فيفقد الأخرى ، ويلتقطها فتسقط الثالثة ، حتى

تطوَّع مفتش القطار بمعاونته ، إلى أن غادر القطار ، وهو يلهث فى شدة ، وكأنما خرج على التوّ من معركة حامية الوطيس ..

وفى تلك الفترة ، لم يكن من العسير أن يجد واحدة من سيارات الأجرة ، تحمله إلى فندقه ، فى قلب (باريس) ، مع حقائبه الضخمة ، التى تحوى كل ثيابه وأدواته ومعدات التصوير ، التى كانت تحتلّ فى تلك الآونة مساحة ضخمة جدًّا ..

وفى الفندق ، ولأن (روميو سيلافيو) ثرثار كبير ، فقد عرف الكل ، من عاملين ونزلاء ، وحتى ضيوف عابرين ، أن المصوّر الإيطالى الشهير هنا ؛ لأن واحدة من كبريات المجلات الإيطالية قد كلفته مهمة عمل تحقيق كبير مصوَّر ، حول برج (إيفل) ، والتطويرات التى تعتزم الحكومة الفرنسية إجراءها فيه ..

وعلى الرغم من ثرثرته ، كان (روميو) شخصًا مهذَّبًا رقيقًا ، يولى عمله اهتمامًا بالغًا ، ويحرص أشدَّ الحرص على عدم التدخل فى أمور الآخرين ، وإن أصرّ على أن يُعاملهم بمنتهى المودّة والصداقة ، وعلى مراعاة مشاعرهم واهتماماتهم ، مما أكسبه بسرعة صداقة العديدين ، واحترام الكل ، واهتمام موظفى وعمال الفندق ؛ لما يمنحهم إياه من إكراميات سخية ..

وفى كل مجلس من مجالس الفندق ، كان لـ (روميو) مقعده

الخاص ، وأحاديثه الشيقة ، وصوره الفوتوجرافية ، التى تخلب لب الكل ، وتُبهرهم ، وتُثير بينهم عاصفة من الجدل ، حول زاوية التصوير ، والإضافة ، وغيرها من العوامل ، التى يشرحها لهم (روميو) فى بساطة مشوّقة ، وأسلوب أخّاذ ، مما يجعلك توقن من أن الضجر الذى أصاب راكب القطار فى البداية ، كانت مشكلته هو ، وليست مشكلة المصوّر الإيطالى ، الذى أجمع الكل على حلاوة لسانه ، وطلاقة أسلوبه ، وقدرته المدهشة على جذب الانتباه ، وشد الآذان ، وأخذ القلوب ، على نحو لم يُبارزه فيه أحد ..

ولكن فجأة ، لم يعد (روميو) يظهر فى الأحاديث والمجالس الليلية ..

لا داخل الفندق ، ولا حتى خارجه ..

كان يخرج إلى عمله ، ثم يعود فى المساء صامتًا ، حزينًا ، ويختفى فى حجرته ، حتى صباح اليوم التالى ..

وعندما طال الأمر ، حسم موظف الاستقبال فى الفندق تردُّده ، وسأله ذات ليلة فى حجرته :

ـ قل لى يا مسيو (سيلافيو) : ماذا أصابك هذه الأيام ؟!

تردَّد (روميو) طويلاً ، مما أصاب موظف الفندق بالحرج ، فتراجع مُغمغمًا :

ـ معذرة يا مسيو (سيلافيو) .. إننى لم أقصد أن ..

قاطعه (روميو) فى عصبية :

ـ لقد نفدت نقودى .

ارتفع حاجبا الموظف فى دهشة ، وهو يهتف غير مُصدِّق :

ـ عفوًا !

كرّر (روميو) فى عصبية أكثر :

ـ لقد نفدت نقودى .. كل فرنك منها .

ثم أشاح بوجهه ليُخفى مرارته ، وهو يُضيف :

ـ إننى أقطع المسافة إلى البرج سيرًا على الأقدام ، ولم أتناول الطعام منذ يومين ، باستثناء طعام الإفطار ، الذى يُقدمه الفندق للنزلاء .

بُهت الموظف للقول ، وظلّ يُحدِّق فيه بضع لحظات ذاهلاً ، قبل أن يتساءل :

ـ وماذا عن تلك المجلة ، التى أرسلتك إلى هنا ؟!

هزّ (روميو) رأسه فى أسى ، وزفر فى مرارة ، قائلاً :

ـ لقد دفعوا نصف الأجر مقدمًا ، ويُصرّون على عدم دفع ليرة واحدة ، حتى يتسلموا الصور النهائية .

وعاد يزفر فى حرارة ، متابعًا :

ـ لقد كان مبلغًا سخيًّا ، ولكننى كنت مبذرًا كعادتى .

ثم قلّب كفيه ، مستطردًا بصوت أقرب إلى البكاء :

ـ ولستُ أدرى حتى كيف أُسدّد أجر الفندق ، عندما يحين صباح الاثنين .

انعقد حاجبا الموظف ، وهو يدرس تلك المشكلة فى ذهنه ، ويُقلّبها على كل الوجوه ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ لست أُصدِّق أن موهوبًا مثلك لا يجد لقمة عيشه ، هنا فى (باريس) يا مسيو (سيلافيو) .. قل لى : هل بحثت عن عمل ؟!

رفع (روميو) عينيه إليه ، كغريق يتعلّق بقشة ، وهو يسأل فى لهفة :

ـ أهذا ممكن ؟!

أجابه الموظف بدهشة أكبر :

ـ وما المانع ؟!

هزّ (روميو) كتفيه فى تردُّد ، قائلاً :

ـ أعنى أننى أجنبى ، و ...

قاطعه الموظف ، هاتفًا بدهشة مستنكرة :

ـ أجنبى ؟!

ثم قهقه ضاحكًا ، قبل أن يضع يده على كتف الإيطالى ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك ما زلت تجهل (باريس) .. (باريس) يا صديقى هى عاصمة النور والفن والجمال .. وكلها كما ترى أمور لا وطن لها ، فالفن فن ، أيًا كانت جنسية صاحبه ، وكل صحيفة ومجلة هنا سيُسعدها أن يعمل بها مصورٌ عبقرى مثلك ، ولو لفترة مؤقَّتة .

هتف (روميو) فى انبهار :

ـ هل تعتقد هذا حقًا ؟!

هتف الموظف بحماس جارف :

ـ بالتأكيد .

ثم مال نحوه ، وغمز بعينه ، مُضيفًا :

ـ اترك لى هذا الأمر .

وكان من الواضح أن الموظف يعرف ما يقوله جيدًا ، فقبل أن

تشرق شمس الاثنين ، كان (روميو) قد سدَّد أجر الفندق كاملاً ، بالإضافة إلى بقشيش سخى لكل العاملين ، بعد أن تعاقد مع كبرى المجلات والصحف الفرنسية ، وحصل على دفعة ضخمة مقدمًا ، اعترافًا بشهرته وعبقريته ..

وبمعاونة الموظف أيضًا ، وكوسيلة لضغط النفقات ، انتقل (روميو سيلافيو) من الفندق إلى شقة بسيطة ، فى الحى اللاتينى ، ونقل إليها كل أدواته ومعداته ، التى تحتلّ تلك الحقائب الثلاث الكبيرة ..

وفى غضون أيام ، كانت (باريس) كلها تعلم بأمر المصوّر الإيطالى العبقرى الذى ملأ الصحف والمجلات بصوره المدهشة ، وبخاصة تلك الصورة الرائعة ، التى التقطها للبارون (شيفاليد) ، والتى احتلت غلاف أشهر مجلة اقتصادية حينذاك ..

وكانت تلك الصورة بداية لمرحلة جديدة ..

ودسمة ..

فمع أناقة الصورة ، انهالت على (روميو) الطلبات ، لالتقاط صور الأثرياء والمشاهير ، وحتى جنرالات الجيش ، وفرقهم ، وضباطهم ..

وعلى الرغم من انهمار الأموال عليه كالمطر ، رفض (روميو)

فى إصرار الانتقال من شقته البسيطة فى الحى اللاتينى إلى أخرى فاخرة فى (الشانزليزيه) ، بحجة أن الإقامة فى الحى اللاتينى أكثر إلهامًا ، وتمنحه قدرة أكبر على الإبداع ..

كانت هذه هى الحجة الرسمية فحسب ..

ولكن السبب الحقيقى كان يختلف تمامًا ..

وحتى يمكننا استيعابه ، دعونا ننقل ذلك المشهد ، الذى دار فى أحد الأحياء الهادئة ، عند أطراف (باريس) ..

فلقد وصل (روميو سيلافيو) إلى ذلك الحى ، دون أدواته ، التى تصحبه فى كل تحرُكاته ، وراح يتجوَّل فى المكان الهادئ الأنيق طويلاً ، حتى اطمأن تمامًا إلى أن أحدًا لا يتبعه ، ثم اتجه بعدها إلى نقطة التقاء متفق عليها ، وجلس على المقعد الثالث إلى اليمين ، من مقاعد الحديقة العامة ، و ..

وهنا ظهر (فون دار) ..

و(فون دار) هذا ضابط مخابرات ألمانى ، أسند إليه الجنرال (هملر) شخصيًا مهمة جمع كل المعلومات المطلوبة عن الجيش الفرنسى ، واستعداداته العسكرية والحربية ، وقدرات خط (ماجينو) ، أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ، حتى ذلك الحين ، والذى أعلنت (فرنسا) أنه يكفى لصد الجيوش الألمانية ، مهما بلغت قوتها ..

وفى تلك الحديقة العامة ، عند أطراف (باريس) ، التقى (فون دار) بعميله رقم واحد فى (فرنسا) ، (روميو سيلافيو) ، وجلس إلى جواره ، قائلاً بالإيطالية :

ـ رسالتك اللاسلكية أمس كانت جيِّدة .

ابتسم (روميو) ، قائلاً :

ـ عظيم .. هذا يعنى أن جهاز اللاسلكى يعمل بكفاءة .

غمغم (فون دار) :

ـ بالضبط .

ثم استرخى فى مقعده ، وهو يسأله :

ـ هل استعددت للخطوة التالية ؟!

أجابه فى هدوء :

ـ صرت قريبًا للغاية منها .

سأله :

ـ كيف ؟!

هزَّ (روميو) كتفيه ، قائلاً :

ـ إننى مدعو غدًا لحضور حفل ساهر ، فى منزل الجنرال (موريس جودو) قائد سلاح الفرسان ، مع عدد من كبار ضباط الجيش وجنرالاته ، حتى ألتقط لهم صورة جماعية .

انعقد حاجبا (فون دار) بشدة ، وهو يُغمغم فى اهتمام بالغ :

ـ سلاح الفرسان ؟!

أومأ (روميو) برأسه ، قائلاً فى شىء من الزهو :

ـ نعم .. سلاح الفرسان .

استدار إليه (فون دار) فى حدة ، وهو يقول بلهجة شفت عن مدى أهمية وخطورة الأمر :

ـ وطد علاقتك به جيدًا يا (سيلافيو) .

قال الإيطالى فى دهشة ، وكأنَّما لم يفهم العبارة :

ـ ماذا ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لا تدعنى أكرِّر قولى أبدًا .. أخبرتك أن توطد علاقتك بالجنرال (جودو) هذا جيدًا ، بأية وسيلة كانت .. اكتسب صداقته ، أو صداقة ضباطه ، أو حتى انضم إلى سلاح الفرسان .. المهم أننا نُريدك هناك فى المرحلة القادمة .. وبأى ثمن .

كان (روميو) يشعر بدهشة كبيرة ، لهذا الاهتمام المبالغ بالأمر ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، كان يُدرك كجاسوس محترف أنه ليس من حقه معرفة الأسباب أو البحث عنها ..

كل ما عليه هو تنفيذ المطلوب ..

وبأفضل وسيلة ممكنة ..

لذا ؛ فقد ذهب (روميو) إلى حفل سلاح الفرسان ، وهذه الفكرة تملأ رأسه تمامًا ..

ولكن مع اللحظات الأولى للحفل ، طارت كل أفكار الدنيا من رأسه ، وفرَّت بأقصى سرعتها ، عندما احتلت عينيه ، ورأسه ، وكيانه كله صورة واحدة ، لم ير أجمل منها ، فى حياته كلها ..

صورة (جوليت) ..

(جوليت بوردو) الفاتنة الباريسية ، ذات الاثنين والعشرين عامًا ، والتى تبدو كقطعة من القشدة ، وسط ذلك الحفل المهيب ، وهى تتجوَّل برقة ونعومة ودبلوماسية بين الضيوف ، للترحيب بهم ، والاهتمام بشئونهم ..

وبكل لهفة وانبهار الدنيا ، سأل (روميو) أقرب الرجال إليه :

ـ من هذه الفاتنة ؟ !

هتف الضابط الفرنسى مذعورًا :

ـ اخفض صوتك بالله عليك يا رجل .. إنها (جوليت) ، زوجة الجنرال (جودو) ، وهو يغار عليها بشدة .

اتَّسعت عينا (روميو) بدهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ زوجته ؟! مستحيل !

كان مُحقًا فى دهشته واستنكاره ، فالجنرال (جودو) كان رجلاً فظًا ، خشن المظهر ، يجعله شاربه الضخم المفتول أشبه بمصارع بدائى منه بقائد من قادة الجيش الفرنسى ، كما أنه فى الثانية والخمسين من عمره ، وليس من العدل أو المنطق أن يتزوَّج قطعة زبد طازجة ، وفراشة رقيقة حالمة ، مثل (جوليت) هذه ..

ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يغار عليها حتى الموت ..

بل وحتى آخر قطرة من دمه ..

وطوال الحفل ، لم يستطع (روميو) رفع عينيه عن (جوليت) ، التى لاحظت اهتمامه البالغ هذا ، فتضرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وحاولت أن تتشاغل عنه بالضيوف والضباط والمدعوين ، إلا أن طبيعة الأنثى فى أعماقها جعلتها تتطلَّع إليه ، بين الحين والحين ، وقد أسعدها أن تخلب لبه إلى هذا الحد ..

وبأسلوب أنثوى مدروس ، انسحبت (جوليت) من الحفل كله ، إلى شرفة جانبية واسعة ، ووقفت هناك تتمالك جأشها ، وقلبها يخفق فى عنف ، وكيانها كله ينتظر ..

ولم يطل انتظارها ، فقد التقط الإيطالى الرسالة ، وأسرع خلفها إلى الشرفة ، وهو يقول بخفوت صوت :

ـ هل شعرت إمبراطورة الحفل وزهرته اليانعة بالتعب أو الملل ؟!

ابتسمت فى حياء لإطرائه ، وهى تُغمغم :

ـ إننى ألتقط بعض الهواء النقى فحسب .

انحنى يطبع قبلة ملتهبة على كفها ، وهو يقول :

ـ كم أحسد هواء الحديقة ، لأنه سيملأ صدر أجمل امرأة فى الكون كله .

رقص قلبها طربًا ، وهى تتأمَّل وسامته الواضحة ، وقوامه الممشوق ، فغمغمت فى اضطراب خجل :

ـ أوه .. أنت تُبالغ كثيرًا يا مسيو (سيلافيو) .

هتف بسرعة ولهفة :

ـ (روميو) يا أميرتى .. (روميو) .. أظنه أكثر اسم يُناسبك يا مدام (جوليت) ..

ضحكت فى حياء للمفارقة ، وهى تهتف :

ـ آه .. (روميو) و (جوليت) .. تشبيه خبيث يا مسيو (سيـ ...)

هتف :

ـ (روميو) يا أميرتى .

ضحكت مرة أخرى قائلة :

تشبيه خبيث يا (روميو) .

اعتدل قائلاً فى خفوت دافئ ، وعيناه تسبحان فى بحر عينيها الأزرق الصافى العميق :

ـ بل حقيقة يا أميرتى .. حقيقة يُعلنها قلبى ، الذى سقط أسير عينيك ، منذ اللحظة الأولى .

كانت تسمع مثل هذه العبارات من كل ضابط ، تُتاح له الفرصة للانفراد بها ، فى أية مناسبة ، ولكنها لم تشعر فى حياتها كلها بمثل هذه السعادة ، التى تشعر بها ، وهى تسمعها من بين شفتيه ..

ربما لأنه أول من ينطقها بهذه الحرارة ..

بكل اللهفة والحب ..

وبلا رغبة أو شهوة مبتذلة ..

لذا فقد خفق قلبها فى عنف ..

وفى حب ..

وقبل أن تُجيبه بكلمة حب واحدة ، انتفض جسدها كله فى عنف ، مع صوت زوجها الجنرال (جودو) ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ ماذا تفعلان وحدكما هنا ؟!

كادت تسقط فاقدة الوعى ، من فرط الهلع والذعر ، وهوى قلبها بالفعل بين قدميها ، لولا أن استدار (روميو) إلى زوجها فى هدوء ، وقال بابتسامة بريئة :

ـ كنت أحاول إقناع مدام (جودو) بالتقاط صورة خاصة لها ، وطباعتها بحجم كبير ، يصلح لوضعها داخل إطار أنيق فى البهو الرئيسى .

شعرت أن الحجة واهية ، وترقرقت عيناها بالدموع التى كادت تنفجر بالفعل ، لولا أن فتل الجنرال شاربه ، وغمغم بابتسامة كبيرة :

ـ فكرة جديرة بالتفكير بحق .

وعاد قلبها إلى موضعه ، ولكنه صار يخفق هذه المرة بحب جديد ..

حب (روميو) ..

ولأن الجنرال قد اقتنع بالفكرة ، ووجد فيها وسيلة مناسبة للزهو بزوجته الفاتنة ، كما اعتاد دائمًا ، فقد حضر (روميو) إلى منزل الجنرال مع بداية الأسبوع التالى ؛ لالتقاط صورة (جوليت) ..

ولكن الجنرال أصرّ على حضور التصوير بنفسه ، مما أفسد خطة (روميو) و(جوليت) ، وجعل التقاط الصورة أمرًا مرهقًا سخيفًا ..

إلا أن عبقرية (روميو) جعلت منها صورة رائعة مبهرة ، بكل المقاييس ..

صورة سعد بها الجنرال وزوجته كثيرًا ، ومنح الأوّل (روميو) مكافأة سخية ، لم يمنحها إياه أى شخص آخر ، ولكنها ، وعلى الرغم من هذا ، لم تبلغ ذرة من المكافأة التى منحته إياها (جوليت) ، عندما همست فى أذنه ، وهو يُصافحها منصرفًا :

الليلة عند منتصف الليل ، فى الحديقة الخلفية .

وطار قلبه فرحًا ..

وفى منتصف الليل تمامًا ، التقيا ..

وكان اللقاء حارًا ، قويًا ، ملتهبًا ..

وعاد (روميو) إلى منزله ، وكل ذرة فى كيانه ترقص فرحًا وسعادة ، بعد أن ظفر بـ (جوليت) التى أصبحت عشيقته رسميًا ، بعد تلك الليلة ..

ولكنه ، ما إن عاد إلى منزله ، حتى تبخَّرت سعادته وفرحته دفعة واحدة ، وحل محلَّها ذعر مصدوم ، عندما فوجئ بضيف فى صالة منزله ..

(فون دار) شخصيًا ..

وعندما حدَّق فى وجهه ذاهلاً مصعوقاً ، ابتسم (فون دار) ابتسامة كبيرة خبيثة ، جعلته أشبه بالثعلب ، وهو يُشعل سيجارته الألمانية الصنع ، قائلاً :

ـ أهنئك يا صديقى .. لقد وجدت بالفعل الوسيلة المثلى ، لاقتحام سلاح الفرسان ..

سأله (روميو) فى توتر :

ـ ماذا تعنى ؟!

مال (فون دار) نحوه ، قائلاً :

- أعنى أنه بعد ما فعلته مع مدام (جوليت) الليلة ، صار من السهل أن ترتبط ارتباطاً وثيقًا بسلاح الفرسان كله .

وارتجفت كل ذرة فى كيان (روميو) ، وعجزت ساقاه عن حمله ، فسقط على أقرب مقعد إليه ، فى حين ابتسم (فون دار) فى هدوء ثعلبى ، وهو يُضيف :

- والآن استعد لتلقى الأوامر الجديدة ، فالجنرال (هملر) شخصيًا يُرسل إليك تحياته ، ويؤكد لك أن خطته البسيطة ، التى ستقوم أنت بتنفيذها ، ستقضى بضربة واحدة على سلاح الفرسان الفرنسى كله .

واتّسعت ابتسامته ، وهو يُضيف :

- إنها خطة عبقرية .. تمامًا كصورك يا عزيزى (سيلافيو) .

كلماته هذه بخّرت كل الرومانسية التى وجدت طريقها إلى قلب (روميو) فى الأيام الماضية ، وجعلته يُدرك أن مهمته فى (فرنسا) ليست الحب والعشق والهيام ، وإنّما العمل على قدم وساق ، من أجل (ألمانيا) ، وانتصار (ألمانيا) المنتظر ، وخاصة بعد أن احتلت النمسا ، وحطّمت كل المعاهدات القديمة ، وبدأت زحفها داخل (أوروبا) القلقة الخائفة ..

واستسلم (روميو) لمصيره ، خاصة وأنه لن يفقد (جوليت) ، التى وضعت اسمه فى قائمة كل حفل يُقام فى منزلها ، أو حتى فى سلاح الفرسان ..

وعن طريقها ، راح (روميو) يلتقط صور الضباط والجنرالات ، ويحضر كل الحفلات والاجتماعات ، وينقل إلى (برلين) كل ما تلتقطه أذناه من معلومات وأحاديث عابرة عن الاستعدادات العسكرية ، وخط (ماجينو) المنيع ..

وبناءً على تعليمات (فون دار) ، راح يوعز لعشيقته (جوليت) بأسماء الضباط والجنرالات الذين يرغب فى توطيد علاقته بهم ، أو دخول منازلهم ..

وعن طريقها جمع عشرات الأسرار والمعلومات ، وبثها إلى (ألمانيا) ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، أو من خلال (فون دار) ..

ثم كانت تلك الليلة ، التى نجحت فيها (جوليت) ، فى أن تُقنع زوجها بانتدابه ، لتصوير حظائر الخيول ، فخر سلاح الفرسان الفرنسى كله ..

ففى الليلة نفسها زاره (فون دار) ، وهو يحمل علبة صغيرة من البلاستيك ، قدّمها إليه ، قائلاً ، فى لهجة تشفّ عن أهمية الأمر وخطورته :

ـ غدًا ستذهب لتصوير حظائر الخيول .. احمل معك هذه العلبة ، وعندما تنفرد بجواد ما ، أخرج الإبرة الصغيرة داخلها ، دون أن تخلع قفازك ، وأوخزه بها ، وكذلك أى جواد آخر حوله ، وبعدها تخلّص منها ومن العلبة ، ومن قفازك أيضًا .. هل تفهم ؟!

ولم يفهم (روميو) ..

أو حتى يستوعب ..

فلماذا كل هذه المخاطرة ، من أجل شكة إبرة ؟!

لم يفهم أبدًا ..

ولكنه نفذ المطلوب ..

وبمنتهى الدقة ..

فما إن أصبح وحده داخل حظيرة ما ، حتى أخرج الإبرة ، ووخز بها الجياد الأربعة داخلها ، ثم تخلّص من الإبرة ، والعلبة .. والقفازين أيضًا ..

وعندما أكّد لـ(فون دار) أنه قد نفّذ المهمة ، فاجأه هذا الأخير بأوامر الجنرال (هملر) ، التى تُطالبهما بالعودة إلى (ألمانيا) فورًا ..

وصرخ (روميو) فى ذعر ، وحاول أن يتنصّل من الأمر ، وأن يتوسّل ، ويتضرّع للبقاء فى (باريس) ..

إلى جوار معشوقة روحه وقلبه (جوليت) ..

ولكن (فون دار) رفض تمامًا ..

بل وأصرّ على ألا يُفارقه لحظة واحدة طبقًا لأوامر (هملر) ، حتى يحملهما القطار إلى (سويسرا) ، ومنها إلى (ألمانيا) معًا ..

وفى القطار ، كاد (روميو) ينهار باكيًا ، لأنه لن يرى معشوقته (جوليت) ثانية قط ، ولكن (فون دار) عنّفه بشدة ، وأفهمه أن القاعدة الأولى فى عالم الجاسوسية هى ألا تقتحمه العواطف قط ، إلا لاستغلالها لتحقيق النجاح فحسب ، أما الجاسوس الذى يقع فى غرام وسيلته ، فهو جاسوس فاشل تمامًا ، وهدّده بأن (هملر) سيُعاقبه بشدة ، لو تبين ما أصابه ، وأنه من الأفضل أن يتلقّى منه المكافأة لا العقاب ..

وحاول (روميو) أن يتماسك ..

وحاول ..

وحاول ..

وربّما نجح فى التظاهر بهذا ، فى جزء الجاسوس منه ..

أما جزء المصوّر الفنان ، فلم ينجح فى محو حب (جوليت) وعشقها من قلبه قط ..

وفى (برلين) ، استقبله (هملر) بالترحاب ، وأخبره أن تلك الإبرة ، التى وخز بها الجياد ، كانت تحوى ميكروب الجمرة الخبيثة ، وأنه لن يمضى أسبوع واحد ، حتى تُصاب كل جياد سلاح الفرسان بالعدوى ، ثم لا تلبث أن تنهار بعد أسبوع آخر ، ويُصبح سلاح الفرسان الفرنسى أثراً بعد عين ..

ثم منحه مكافأة ضخمة ، وطلب منه أن يلزم (برلين) ، حتى ينتهى الأمر ، وتسقط (فرنسا) فى قبضة (ألمانيا) النازية ..

ولزم (روميو) (برلين) ..

بل لزم شقته الصغيرة داخلها ، لا يأكل أو يشرب ، وهو يسترجع ذكرى كل لحظة قضتها (جوليت) بين ذراعيه ..

أما زوجة الجنرال الشابة ، فقد كادت تُجن ، عندما اختفى عشيقها الشاب فجأة ، وراحت تتصرَّف بعصبية وغضب ، وهى تبحث عنه فى استماتة ، ثم لم تلبث أن سقطت فريسة مرض مجهول ، حار فيه زوجها والأطباء ، فى نفس الوقت الذى راحت فيه جياد سلاح الفرسان تنهار ، واحدًا بعد الآخر ، وسط فزع الجنرال (جودو) وجنوده وضباطه ، وحيرتهم أمام ما يُصيبهم ..

وبضربة مدهشة ، حطَّمت كل القواعد العسكرية المعروفة ، اقتحم الألمان خط (ماجنيو) ، وانقضوا على (فرنسا) ، التى

انهارت واستسلمت ، بعد مرور أربعة عشر يومًا فحسب من القتال ..

وما أن انفتحت الحدود بين الدولتين ، حتى هرع (روميو) كالمجنون ، للقاء حبيبته ، وهو لا يدرى كيف سيواجهها بحقيقته ، ويعترف لها بخطة خداعه القذرة ..

ولكن القدر أعفاه من كل هذا ..

فما إن بلغ (باريس) ، حتى كانت بانتظاره صدمة عنيفة ..

لقد اشتد المرض بالحبيبة (جوليت) ، حتى قضت نحبها فى فراشها ، ودموع الحب واللوعة تغرق وجهها ..

وانهار (روميو) تمامًا ، وراح يدور حول منزل الجنرال (جودو) كالمجنون ، وهو يُناجى حبيبته ، ويُناشدها العودة إليه ، حتى ولو دفع روحه ثمناً لروحها ..

وكل هذا دون أن يضع فى حلقه لقمة طعام واحدة ، أو حتى شربة ماء ..

ومع الوقت ، تحوَّل الأمر إلى جنون حقيقى ، مع تحوُّل واستنزاف شديدين ، كان من نتاجهما أن أسلم الجاسوس العاشق الروح ، وهو يوصى فقط بأن يُدفن إلى جوار معشوقته ..

ولكن الباريسيين رفضوا تنفيذ مطلبه الأخير هذا ، بعد أن أدركوا أنه لم يكن سوى جاسوسًا ألمانيًا ، شارك فى احتلال بلادهم وانهيارها ..

وهكذا لم يلتق (روميو) و(جوليت) ..

فرَّقت بينهما الحرب ..

وفرَّق بينهما الموت ..

ولكن بقيت قصتهم كرواية فريدة لا مثيل لها ..

قصة الجاسوس (روميو) ، والعاشقة (جوليت) ..

أغرب قصة فى ذلك الكتاب الغامض ، وتلك الحرب الدائمة ..

حرب الجواسيس ..

★ ★ ★

جاسوس القلم ..

فجأة ، اندلعت الثورة الروسية ..

وكلمة فجأة هنا ليست وسيلة لجذب الانتباه ، وإنَّما كانت صاعقة عنيفة ، هوت على رءوس الجميع ، فى الوقت الذى تخبَّط فيه العالم كله ، فى غمار الحرب العالمية الأولى ، واشتبك فيه الحلفاء (إنجلترا) ، و(فرنسا) ، و(روسيا) ، و(بلجيكا) ، و(صربيا) ، و(الجبل الأسود) ، و(اليابان) ، فى نضال وقتال عنيفين شرسين ، ضد قوات الحلف الثلاثى (ألمانيا) ، و(النمسا) ، و(المجر) ، وإلى جواره الإمبراطورية العثمانية ..

ولم يكن مبعث توتر الجميع هو ذلك الانقلاب العنيف ، فى النظام الاجتماعى الروسى ، أو تلك الصراعات القوية ، بين اتِّجاهاته المختلفة ، أو حتى ما أصاب القيصر وأسرته ..

فكل هذا لم يكن يعنى أحدًا ، فى ذلك الحين ، خاصة وأن البلاشفة لم يكونوا قد تولَّوا السلطة فعليًا ، ولم تكن الشيوعية قد أبرزت أنيابها بعد ..

ولكن الخطر الحقيقى كان يكمن فى تلك الدعوة ، التى تردَّدت بشدة فى الشارع الروسى ، كنتيجة مباشرة للثورة ..

دعوة (السلام والخبز) ..

فالروس ، الذين قاموا بالثورة ، وأيدوها ، وعانوا طويلاً من شظف العيش ، ومن نقص الغذاء والضروريات ، كانوا يكرهون الحرب ، التى تستنزف المزيد من الرجال ، والدماء ، والطعام ، والموارد ، وكانوا يُنادون بعقد صلح مُنفرد مع (ألمانيا) ، حتى يعود السلام ، ويتوافر الخبز ..

وبالنسبة لباقى الحلفاء ، كانت هذه مصيبة ..

بل كارثة ..

فعقد صلح مُنفرد ، بين (روسيا) و(ألمانيا) ، كان يعنى أن تسحب الأخيرة أكثر من مليون جندى ، من الجبهة الروسية ، وتلقى بهم فى (أوروبا) ، فى وقت بلغ الموقف فيه أشدّ أوقاته حرجًا ..

وبسرعة وتوتر بالغين ، راحت المخابرات البريطانية تدرس الموقف ، الذى بدا لها دقيقًا ومُظلمًا للغاية ، فالقوات البريطانية والفرنسية مستنزفة إلى أقصى حد ، والأمريكيون لن يمكنهم قط عبور المحيط ، والوصول فى الوقت المناسب ، وهذا يعنى أن القوات الألمانية ، التى ستتحولّ من الشرق إلى الغرب ، عند إيقاف القتال فى الجبهة الروسية ، ستكفى لتحطيم ما تبقّى من قدرات

الحلفاء ، ورفع علم (ألمانيا) على نصف (أوروبا) على الأقل ..

وعلى الرغم من أن رئيس وزراء الحكومة الروسية الجديدة ، ووزير الحربية السابق (ألكسندر كيرينسكى) ، قد أعلن اعتزام حكومته المُضى فى الحرب ضد (ألمانيا) ، على نحو واضح وصريح ، إلا أن حكومته كانت تواجه ضغوطًا عنيفة من البلاشفة ، ومن دعوتهم الخاصة بإحلال (السلام والخبز) محل الحرب والقتال ، والتى لقيت صدى شعبيًا هائلاً ، مما يوحى بأن قضية مواصلة الحرب هى قضية خاسرة ، إن عاجلاً أو آجلاً ..

أضف إلى هذا أن (ألمانيا) لم تقف مكتوفة اليدين ..

لقد أطلقت أبواق دعايتها بكل قوتها ، والألمان موهوبون فى هذا المضمار ، وراحت تُعمّق الفكرة ، فى وجدان الشعب والجيش ، حتى أن بعض الجنود ، الذين يرفضون فكرة الحرب منذ البداية ، بدءوا بالفعل فى التخلّى عن وحداتهم ، والعودة إلى منازلهم ، تحت شعار أن الشعب الروسى لا مصلحة له فى حرب أوروبية ، تستنزف موارده ، وتقضى على أحلامه وطموحاته فى مهدها ..

وسُرعان ما امتدّ التمرُّد إلى فرق عسكرية بأكملها ، وصار الموقف كله ينذر بانهيار الجبهة الشرقية كلها من الداخل ..

وكان لابد من اتّخاذ خطوة حاسمة ، لدراسة الموقف عن قُرب ، وتحديد ما ينبغى عمله ، لمنع الكارثة الوشيكة ..

وفى القسم (إم 11 س) ، فى المخابرات البريطانية ، والذى سُمى فيما بعد بقسم (إم أى 6) ، راح (ويليام وايزمان) ، مدير المشتروات البريطانية الخارجية ، من الناحية الظاهرية ، ورئيس إدارة الاستخبارات البريطانية ، من الناحية الفعلية ، يدرس الأمر بمنتهى الدقة والاهتمام ، كعادة البريطانيين ، وراح يُراجع عشرات الملفات ، ويُجرى عشرات الاتصالات مع المؤسسة الأمريكية ، وبخاصة البيت الأبيض ، عن طريق صديقه (إدوارد هاوس) ، مستشار الرئيس الأمريكى (وودرو ويلسون) ..

ثم خرج باقتراح خطير للغاية ..

لابد من إرسال جاسوس خاص جدًا إلى (بيتروجراد) (سان بطرسبرج سابقاً) ، لدراسة الموقف ، وتحديد ما ينبغى فعله ..

ومن وجهة نظر (وايزمان) ، كان لابد وأن يتميَّز ذلك الجاسوس بنظرة ثاقبة ، وقدرة على استيعاب الأمور ، وفهم الأحداث ، وتحليلها ، وتقييم الموقف على نحو شامل دقيق ، وأن يتمتع بشخصية خاصة ، وغطاء قوى ، يُبعد عنه الشبهات تمامًا ..

ومن هذا المنطلق ، وقع اختياره على آخر شخص يمكن تصوّره .. على (سومرست موم) ..

وفى ذلك الحين ، كان (موم) كاتبًا شهيرًا محبوبًا ، تُترجم كتاباته إلى عدة لغات أوروبية ، ويُقيم بصفة دائمة فى (سويسرا) ، وله اتصالات قوية مع عشرات المؤسسات والجمعيات هناك ..

والواقع أن اختيار (موم) للمهمة لم يكن مجردَّ فكرة مجنونة ، كما قد يبدو للوهلة الأولى ..

فمنذ عام 1915م ، انتبهت المخابرات البريطانية إلى شهرة (موم) واتصالاته ، وأدركت أنه من الضرورى أن يقوم شخص ، بتقديم خدمة لبلاده ، من موقعه هذا ..

وفى نهاية العام نفسه ، التقى أحد رجال المخابرات البريطانية بالكاتب الشهير ، وعرض عليه الأمر ..

ولدهشته ، وعكس توقعات الجميع ، رحَّب (موم) بالفكرة بشدة ، وأبدى استعداده التام للتعاون ، وللقيام بكل ما تُكلفه إياه (بريطانيا) ، بمراقبة العملاء الألمان وجواسيسهم هناك ..

وفى عام 1916 م ، سافر (ويليام وايزمان) إلى (الولايات

المتحدة الأمريكية) ، بحجة عمله كرئيس للمشتروات ، ولكن مهمته الحقيقية كانت إدارة عمليات المخابرات هناك ، وشن حملة دعائية ضخمة ، والقيام بنشاطات مكافحة الجاسوسية ، حيث لم يكن جهاز المخابرات الأمريكية قد تكوَّن بعد ..

ومن موقعه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، استطاع (وايزمان) أن يرتبط بصداقات قوية مع عدد من رجال ومستشارى الرئيس الأمريكى ، بحيث أصبحت المخابرات البريطانية هى التى تُدير فعليًا سياسة الرئيس (ويلسون) ..

ومن موقعه أيضًا درس الموقف الروسى ..

واختار (موم) ..

وعلى الرغم من إدراكه لمدى عنف وصعوبة وخطورة الأمر ، قبل (موم) المهمة ، وأعدَّ حقيبة ملابسه الضخمة ، كالمعتاد وشدَّ الرحال إلى (بيتروجراد) ..

ومنذ اللحظة الأولى لوصوله ، أدرك (موم) أن المكان يختلف تمام الاختلاف عن مناخ (سويسرا) ، الذى اعتاده وعاش فيه طويلاً ..

بل لقد كان النقيض له تمامًا ..

فى كل شىء ..

ففى تلك الفترة ، كانت (بيتروجراد) أشبه بمستودع ضخم للقمامة ، يذخر بآلاف المجانين السياسيين ، ومثلهم من الغاضبين والثائرين ..

وكان (موم) يتناقض تمامًا مع كل هذا ، بزيه الأنيق ، المصنوع من الصوف ، فى جو أغسطس 1917 م ، وحذائه اللامع ، وعصاته ذات الرأس المصنوع من العاج ..

وكان الطبيعى أن يجذب انتباه الجميع ..

وشكوكهم ..

خاصة وأن تبريره الوحيد ، الذى قدَّمه للجميع ، عن سبب تركه لهدوء (سويسرا) ، وإقحام نفسه فى جحيم (بيتروجراد) ، فى ظل هذه الظروف ، هو أنه ككاتب يحتاج إلى التواجد فى هذا المناخ ، لتنضج داخله فكرة روايته الجديدة ..

وبالنسبة لشعب جاف خشن ، يخوض ويلات عنيفة ، مثل الشعب الروسى ، كان هذا التبرير يبدو سخيفًا إلى حد كبير ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تُحيط الشكوك بالكاتب بشدة ..

ولكن (موم) كان أبعد ما يكون عن الشكل التقليدى ، أو المتصوَّر ،

للجاسوس ، فى تلك الآونـة ، فبالإضافة إلـى مظهـره المُلفت للانتباه ، والمثير للدهشة والاستفزاز ، على عكس ما يميل إليه الجواسيس فى المعتاد ، كـان (مـوم) ضعيف البنيـة ، خـافت الصوت ، كثير السعال ، بسبب إصابته بسل رئوى قديم ..

ثم إنه كان ، وهذا هو الأكثر خطورة ، شاذًا على نحو علنـى ، لا ولم يُحاول قط إخفاءه ، وهو يتطلَّع إلى جنود البحرية الثوريين ، فى شغف مفضوح ..

وبناءً على هذا ، لم يتم اعتقال (موم) ..

بل وسرعان مـا تناسـى الجميع أمره ، وتجـاهلوا وجـوده ، وكأنهم يردون إليه الصفعة الاستفزازية ذاتها ..

وكان هذا أفضل ما يتمناه الكاتب ، الـذى راح يدرس الأمر ، ويجمع المعلومات ، ويسعى لتحليلها وتفنيدها ، ثم يُرسل كـل مـا لديه إلى (وايزمان) ..

وأوَّل ما أدركه (موم) ، هو أنه قد وصل متأخرًا للغاية ..

فالدعايـة الألمانية قد نجحت فـى غرس نفسها ، فـى أعمق أعمـاق المجتمـع الروسـى ، بحيث صـار الجميع ساخطين علـى الحرب ، رافضين للاستمرار فيها ، مُطالبين بعقد صلح منفرد مع الألمان ؛ لتوفير الطعام والمؤن ..

وفى الوقت ذاته ، كانت (ألمانيا) تعد لإعادة (لينين) وبـاقى زعمـاء البلاشفة إلى (موسـكو) ، فـى عمليـة عُرفت باسم (القطار الحديدى) ..

وكانت حكومة (كيرينسكى) تترنَّح على نحـو واضح ، وتلهث بأنفاسـها الأخيـرة ، فى محاولة منها للسيطرة على الموقـف ، أو استعادة قبضتها عليه ..

وهكذا جاءت التقارير الأوَّلية للكاتب الجاسوس مُخيبـة للآمـال على نحو لم يسبق له مثيل ، وأصابت البريطانيين والأمريكيين بحالة من الإحباط والقلق ، كما لو أنهم قد خسروا الحرب بالفعل ..

وراح الجميع يُعيدون دراسة الموقف مرة أخرى ..

ومن وجهة نظر (موم) ، التى حملها التقرير التالى ..

فبعد ما رآه (موم) هناك ، فى (بيتروجراد) ، كـان يرى أن الحل الوحيد ، لتفادى ما حدث ، بعد الدعايـة الألمانيـة الهائلـة ، هـو إغراق حكومـة (كيرينسكى) الثـورية المؤقَّتـة ، بأطنـان من الأموال ، تكفى لتوفير الطعام للشعب الروسى ، حتى تخمد الأبواق الدعائية ، المستندة إلى جوعه ، ولا تجد صدى لديه ..

هذا لأن الشعوب كالجيوش .. تسير دومًا على بطونها ..

أما الحل البديل من وجهة نظر (موم) لضمان استمرار (روسيا) فى القتال ، فلم يكن سوى التدخُل العسكرى المباشر فيها ..

وكانت فكرة أكثر جنونًا ..

ولا أحد يدرى ما إذا كانت فكرة (موم) الأولى قابلة للتنفيذ أم لا ، فقد راح (وايزمان) يدرسها بنفس الدقة والإحكام ..

والبطء أيضًا ..

وقبل أن يتخذ مع الأمريكيين قرارًا حاسمًا بشأنها ، كانت الأمور قد أفلتت من قبضتهم بالفعل ..

لقد نجح الألمان فى عملية (القطار الحديدى) ، ووصل (لينين) وباقى زعماء البلاشفة إلى (موسكو) ، رافعين أيديهم بعلامات النصر ، للشعب الذى استقبلهم بلهفة لا مثيل لها ، وحماس منقطع النظير ..

وجرت الأحداث بسرعة لم يتوقَّعها أحد قط ..

وبقفزة مدهشة ، اعتلى البلاشفة مقاعد السلطة ..

وانهارت حكومة (كيرينسكى) الثورية المؤقَّتة ..

بل إن هذا الأخير فرَّ من البلاد كلها ، ولم يتوقَّف إلا ليلتقط أنفاسه فى المنفى ، الذى قضى فيه ما تبقَّى من العمر ..

وسقطت قلوب الحلفاء بين أقدامهم ..

ومنذ اللحظة الأولى للحكومة البلشفية الجديدة ، تم إعلان الرفض التام والكامل للحرب ، والرغبة الصادقة فى السلام ، وفى توقيع صلح منفرد مع (ألمانيا) ..

وقد كان ..

وهنا .. هنا فقط ، أدرك (موم) أن موقفه شديد الحساسية والخطورة ، وطالب البريطانيين بضرورة العمل على إخراجه من ذلك الفخ ، وإعادته إلى (سويسرا) ، بأية وسيلة كانت ..

ولم يتخلَّ البريطانيون عن رجلهم ..

لقد أرسلوا مدمرة بريطانية كاملة من أجله ..

وكان على الكاتب الكبير الشهير أن يلعب ، ولأوَّل مرة فى حياته ، دور الجاسوس بحق ، فقد اضطر للتسلُّل إلى الساحل ، والفرار بزورق صغير ، تعطَّل قبل أن يبلغ المدمرة ، مما أجبره على السباحة فى المياه الباردة حتى نقطة الالتقاء ..

ولقد كان لتلك المغامرة المحدودة تأثيرها البالغ عليه ..

لقد تدهورت صحته أكثر وأكثر ، حتى إنه بلغ (سويسرا) فى هيئة أشبه بالهيكل العظمى ، وبشحوب فاق شحوب الموتى ..

وفى الوقت الذى أصبح فيه (سومرست موم) نزيلاً ، فى واحدة من أشهر المصحَّات السويسرية ، كان (وايزمان) قد أقنع الرئيس الأمريكى (ويلسون) بالقيام بأكبر حماقة سياسية عسكرية فى التاريخ ..

فقد أقنعه بشن حملة عسكرية على حكومة (روسيا) البلشيفية ؛ لإجبارها على الاستمرار فى حربها ضد (الألمان) ..

والعجيب أن (ويلسون) قد فعلها ، على الرغم من كثرة معاونيه ومستشاريه ..

وقام بالحملة العسكرية ..

ولكن حتى هذا لم يُكتب له النجاح ..

فلقد انتهت الحرب بهزيمة (ألمانيا) ، وانهيار الإمبراطورية العثمانية ، ثم اندلعت بعدها الحرب الأهلية فى (روسيا) ، فوقَّع الرئيس (ويلسون) مجموعة من القرارات ، تصوَّر لحظتها أنها قادرة على تغيير وجه التاريخ ..

إنزال قوات الحلفاء فى (روسيا) ، يُدعمهم ثلاث عشرة ألف جندى أمريكى ..

القيام بعدد من العمليات السرية ؛ لتحطيم النظام البلشفى فى مهده ..

دعم الجبهة المعادية للبلاشفة علانية ..

وكانت كارثة ، وفضيحة لم ينسها التاريخ قط ..

ولكن من المؤكَّد أن ما أراده (ويلسون) ، ومن خلفه (وايزمان) قد حدث ..

فتلك الحماقة غيَّرت بالفعل وجه التاريخ ، بما صنعته من عداء قوى ودائم ، بين النظام البلشفى ، وكل الأنظمة التى عادته ، وعلى رأسها النظام الرأسمالى الأمريكى ..

والله (سبحانه وتعالى) يعلم ، ماذا كان يمكن أن يحدث ، لو لم يستقبل الحلفاء ، ذلك النظام البلشفى بتلك الروح العدائية القتالية ، منذ لحظته الأولى !!

أما (موم) ، فقد تعافى ، بعد فترة من الوقت ، وصار كل همَّه هو أن يثبت لجهاز المخابرات البريطانى ، وبالذات لرئيسه (ويليام وايزمان) ، أنه كان جاسوسًا مُخلصًا ، وأن كل تقاريره كانت حقيقية وواقعية تمامًا ..

ولم يُعلِّق أحد على هذا ..

أو يبالى به ..

فمن وجهة نظرهم جميعًا ، كان (موم) عميلاً مستهلكًا من

الناحية الصحية والنفسية ، حتى أن أحدًا لن يُفكّر فى إسناد مهمة جديدة له ..

ولكن (موم) نفسه لم يُدرك هذا ، إلاّ فى أوائل الخمسينات ، وعندئذ اتّخذ قرارًا تمرديًا ، شأن أى كاتب ، وأصدر كتابه الشهير (كنت جاسوسًا) ..

وكان الكتاب آنذاك قنبلة فى الأوساط الأدبية والسياسية معًا ، فلم يكن أحد يتصوّر أن يكون الكاتب الشهير عميلاً للمخابرات البريطانية على هذا النحو ..

ومن المؤكد أن الروس قد عضّوا بنان الندم ؛ لأنهم تركوه يتجوّل فى بلادهم ، ويحصل على معلومات بهذه البساطة ، وتمنوا لو أنهم سحقوا أناقته المفرطة وعينيه الثاقبتين فى حينه ..

ولم تُعلّق المخابرات البريطانية على كتاب (موم) ..

وتجاهلته السلطات الأمريكية تمامًا ..

أما الروس ، فقد أنكروا أن يكون (موم) قد دخل إلى بلادهم ، فى أى زمن مضى ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد حطّم كتاب (موم) كل أرقام المبيعات القياسية ، واحتلّ مكانه لعام كامل ، على رأس قائمة

أكثر الكتب مبيعًا ، حتى أن الزهو والغرور قد أصابا الكاتب بشدة ، وبدأت كتاباته تتخذ منحنى آخر ..

واتجاهًا عجيبًا ..

لقد اتّجه بغتة ، إلى أدب الفجور ، على نحو صدم مشاعر المجتمع الأوروبى والعالمى كله ، وأثار غضبًا واشمئزازًا لا مثيل لهما ، حتى أن البعض قد أسقط كل أعماله وكتاباته السابقة ، ولم يعد يعترف سوى بأنه كان يومًا أديباً جاسوسًا ..

جاسوس قلم ..

★ ★ ★

جاسوس فى قلب الهدف

(آلدريتش هـ . أيمز) ، ضابط بقسم (الاستخبارات المضادة) ، بالـ (CIA) ..

وعلى الرغم من منصبه ، وعلى طريقة حاميها سارقها ، تجسس (أيمز) لحساب السوفيت ، ثم لحساب (روسيا) بعد سقوط (الاتحاد السوفيتى) .

وعندما ألقى القبض على (أيمز) فى عام 1994 م ، صرح المسئولين الفيدراليين أنه تسبب فى أكبر شرخ أمنى على امتداد تاريخ الـ (CIA) ، الأمر الذى كلفها الكثير ؛ فخلال تسعة أعوام التى تجسس فيها ، كشف (أيمز) عن أكثر من مائة عملية سرية ، وخان أكثر من ثلاثين عميلاً يتجسسون لحساب الوكالة ، أو لأجهزة مخابرات غربية أخرى ، مما تسبب فى إعدام عشرة على الأقل من الروس والأوروبيين الشرقيين ممن غُدر بهم ، كان من بينهم الميجور جنرال (ديمترى بولياكوف) ، ضابط الـ (GRU) السوفيتى ، والذى تجسس لحساب (الولايات المتحدة) لمدة عشرين عاماً تقريبًا ، قدم خلالها معلومات لا تقدر بثمن .

ومن الآثار المدمرة لخيانة (أيمز) ، ذلك الكم الهائل من المحظورات التى ارتكبها ضباط الـ (CIA) ، الذين أحيطوا علماً بأن عملاءهم معرضين للخطر ، والذين أرسلوا تقارير فاسدة فى الفترة ما بين 1986 م و1994 م إلى البيت الأبيض والبنتاجون ..

عشرات من التقارير عن تطويرات الأسلحة ومجهودات التسليح السوفيتية ، ثم الروسية فيما بعد ، بنيت على معلومات من (عملاء) كان الضباط أول من يعلم أنهم تحت سيطرة (موسكو) . إلا أن مسئولى الـ(CIA) المحاطين علماً بهذا ، لم يسلموا بصحة المعلومات الواردة فى هذه التقارير ..

وطبقاً لما ورد فى تقرير (لجنة النواب المنتقاة للإشراف على المخابرات) ، فهناك 11 تقريرًا أرسلت إلى الرؤساء (ريجان) و(بوش) و(كيلنتون) ، لم يُفصح فيها عن سر تحفظات الـ(CIA) على مصادر معلوماتها ، وإن احتوت التقارير المرسلة إلى (البنتاجون) ، فى نفس الوقت ، على بعض التلميحات التى تتعلق بهذه المصادر ، دون الإشارة إلى الشك فى كونهم تحت سيطرة (موسكو) الكاملة ..

ولقد بدأ (أيمز) نشاطه التجسسى فى 1985 م ، عندما كان رئيسًا لقسم (الاستخبارات المضادة) السوفيتية بالـ (CIA) . وعلى الرغم من كونه محاطًا بالشكوك لبعض الوقت ، لاحتمال كونه

عميلاً هامًا للسوفيت ، إلا أن المحققين لم يبدءوا فى تضييق الخناق عليه ، حتى عام 1992م .. ولقد زلزل القبض على (أيمز) الـ (CIA) ، وأثار (الكونجرس) ، الذى بدأ فى المناداة بتطهير الوكالة مما أودى بمستقبل (جيمس وولزى) ، مدير الوكالة ، وأدى إلى تقاعد مبكر لعدد من ضباط الـ(CIA) ، من ذوى المراكز العليا .

ووصف (الكونجرس) ما حدث ، باعتباره سلسلة من التخبطات لا تصدق تقريبًا ؛ فقد فشل محققو الوكالة فى الربط بين أسلوب الحياة المترفة الرغدة ، التى يحياها (أيمز) ، وإنفاقه ببذخ شديد ، وبين إمكانية تقاضيه أموالاً طائلة مقابل التجسس ؛ إذ دفع له السوفيت ثم الروس 2 .7 مليون دولار على الأقل ، أثناء عمله لحسابهم ، اشترى (أيمز) بهم منزلاً بـ 540 ألف دولار عدًا ونقدًا ، وكان يقود سيارة (جاجوار) XJ6 حمراء ، تبلغ قيمتها أربعين ألف دولار .. كل هذا ولم يكن دخله السنوى الرسمى يتعدى الـ 69 .843 دولار . أضف إلى ذلك سجل (أيمز) الحافل بكونه مخمورًا فى أغلب الأحيان ، واتهامه باختراقات فى الأمن الروتينى !

ذكر تقرير لجنة التحقيق ، فى قضية (أيمز) ، إن فشل الوكالة فى اكتشاف خيانة (أيمز) ، أدى إلى خسارة كل أصول

المخابرات ، التى استهدفتها الـ (CIA) ، فى (الاتحاد السوفيتى) ، فى ذروة الحرب الباردة ..

المدهش أن عملية اصطياد العميل قد بدأت فى عام 1986 م ، بعد إعدام ضابطى مخابرات سوفييت جندهما الـ (FBI) . واتجهت الشكوك فى البداية إلى (إدوارد لى هوارد) ، وهو ضابط بالـ(CIA) ، و(منشق) منذ عام 1985م ، أو حتى (كلايتون لونترى) ، و هو من البحرية الأمريكية ، والمتهم بالتجسس على السفارة الأمريكية فى (موسكو) ..

ولكن بعد اختفاء ثلاثة عملاء آخرين ، لم يكن أمام المحققين سوى تقبل وعلى مضض الاحتمال الساحق ، بأن تسرب المعلومات ينبع من الـ (CIA) نفسها ، إلا أنه لم يتم بحث الأمر بين الـ (CIA) والـ (FBI) ، بشأن مخاوفهم تلك حتى عام 1991م ، حيث بدأت الـ (FBI) تحرياتها تحت (الاسم الكودى) (المتحرك ليلاً) ، ثم أطلق عليها فيما بعد عملية (إفلايس) ، (الإفلايس هو خنجر قصير له حافتان) ..

ولقد كان اسم (أيمز) ضمن عشرين اسمًا مشتبه فيهم ، وذلك على الرغم من اجتياز ذلك الأخير لاختبار (جهاز كشف الكذب) فى 1986م و1991م ، ثم نقل (أيمز) إلى قسم مكافحة الجاسوسية التابع للـ (CIA) وهو قسم غير حساس نسبيًا ، إلا أنه ظل

مستمرًا فى التجسس ، والحصول على وثائق بالغة السرية ، لا تتعلق بعمله الجديد ، حتى استطاعت الـ (FBI) فى يونيو 1992م الحصول على تصريح من (محكمة المراقبة على المخابرات الأجنبية السرية) ، بناءً على التماسها ، بوضع أجهزة تنصت فى تليفون (أيمز) ، والتسلل إلى منزله ؛ لوضع كاميرات و براغيث إلكترونية ، وكذلك التجسس على الكمبيوتر الشخصى بمنزله ..

وفى أكتوبر 1992م ، ادعى (أيمز) أنه ذاهب لزيارة نسائية فى (كولومبيا) ، ولكن مراقبوه كانوا يعلمون أنه فى طريقه إلى (كاراكاس) بـ (فنزويلا) ، وقد شوهد (أيمز) مجتمعًا مع (عميل) سوفيتى ، وهو تحت رقابة الـ (FBI) السرية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تأخرت الـ (FBI) فى اعتقاله ، على أمل ضبطه متلبسًا بالتقاط أى شىء من نقاط الإسقاط ، ولكنها بدأت فى تضييق الخناق عليه ، عندما شعرت بتكاثر شكوك متعامليه السوفييت ، وتم بالفعل القبض عليه فى 21 فبراير 1994م ، قبل يوم واحد من ذهابه إلى (موسكو) ، فى اجتماع رسمى تابع للـ(CIA) ، مع متخصصين من المخابرات الروسية فى شئون المخدرات .. كذلك تم القبض على زوجته (روزاريو) البالغة من العمر 41 عاماً ، ولقد تعرف (أيمز) على زوجته

الأولى (نان) فى الـ (CIA) حيث كانت ابنة لضابط بالوكالة ، وعندما عين فى محطة (مكسيكوسيتى) فى عام 1981م لم ترافقه زوجته ، وفشل زواجه ، الذى سرعان ما انتهى بالطلاق . وفى (مكسيكوسيتى) التقى بزوجته الثانية (روزاريو) الكولومبية المولد ، والتى كانت مصدراً قليل الأهمية للـ (CIA) ، وكان لدى الزوجين ابن واحد يسمى (باول) يبلغ من العمر خمسة أعوام .

ولقدعمل جواسيس (أيمز) الهامين لحساب الـ (KGB) فى البداية ، ثم تجسسوا لحساب الوكالات الروسية التى خلفته بعد انهيار (الاتحاد السوفيتى) فيما بعد ..

وكخبير فى الشئون السوفيتية بالوكالة ، استطاع أيمز خلال عمله ، أن يستخلص معلومات من (المنشق) السوفييتى (فيتالى يورنشينكو) ، وكان المتعامل الرئيسى مع (آركادى شفشينكو) السكرتير الثانى للشئون السياسية بالأمم المتحدة ، والضابط السوفيتى الأعلى مرتبة ، الذى انشق للـ(الولايات المتحدة) .

وبصفقة قضائية مع المدعين الفيدراليين ، اعترف (أيمز) بتهمة التجسس وقبل الحكم عليه بالسجن مدى الحياة دون التمتع بطلب إطلاق السراح المشروط ، ووافق على التعاون مع

الـ (CIA) والـ (FBI) ؛ مقابل بعض الرأفة مع زوجته (روزاريو) ، التى حكم عليها بـ 63 شهرًا ، (انقصت بعد ذلك إلى 42 شهرًا) ..

وحتى بعد دخوله السجن ، استمر (أيمز) فى مفاوضاته ، التى حاول من خلالها الحصول على مزايا أكثر مقابل مزيد من التعاون من جانبه ، إلا أنهم كانوا قد أفرغوا كل مالديه ، مما يهمهم بالفعل ، فتجاهلوا محاولاته ، ومازال يقضى فترة عقوبته ، حتى الآن .

★ ★ ★

كارمن ..

من المؤكَد أن أولَ ما سيتبادر إلى الأذهان ، عند قراءة العنوان ، هو أن بطلتنا هذه المرَة هى تلك الغجرية الحسناء ، صاحبة الأوبرا الشهيرة ، التى خلبت لب الجميع لسنوات وسنوات ..

ولكن هذا ليس صحيحًا على الإطلاق ..

فبطلتنا تشترك مع تلك الغجرية فى اسمها فحسب ، ثم تختلف عنها بعدئذ فى كل الأوجه الأخرى بلا استثناء ، ولعل أبرز نقاط الخلاف هى أن بطلتنا (كارمن ميرى موراى) ، لم تحظ قط بتلك الشهرة الواسعة فى عالمها ، التى حظت بها سمراء الأوبرا ..

بل إنه حتى المتخصصين فى عالم المخابرات والمتابعين لما ينشر عنه ، قد يجهلون تمامًا اسمها ، ودورها الخطير ، خلال الحرب العالمية الثانية ..

لذا دعونا نعود إلى البداية ..

إلى عام 1938 م . عندما بلغت زعامة (أدولف هتلر) ذروتها ، وراحت خطبه الحماسية تهز قلوب وحماس الشباب فى معظم دول (أوروبا) ، وفى نفس الوقت الذى زحفت فيه قواته

النازية ؛ لتحتل (النمسا) و(السويد) ، ولتحقيق ما نادى به زعيمها ، من ضرورة أن تستعيد (ألمانيا) مجدها ، بعد تلك الهزيمة المنكرة التى لقيتها ، فى الحرب العالمية الأولى ..

فى ذلك الحين ، تردّد اسم (كارمن موراى) فى الردهات السرية لجهاز المخابرات الألمانى ، وخاصة مع نشاط ذلك الجهاز ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن أقوى خط دفاعى فى ذلك الحين ألا وهو خط (ماجينو) الفرنسى ، الذى كان يُعد أيامها تحفة علمية وعسكرية بكل المقاييس ، ومانعًا خطيرًا ، يحول بين ألمانيا وأطماعها فى (أوروبا) و(آسيا) ..

ومع أوامر مباشرة وسرية للغاية ، سافرت (كارمن) ، سويسرية الجنسية إلى (باريس) مع مبلغ ضخم من المال ، يُتيح لها أن تتخذ مكانة مرموقة ، فى الحياة الاجتماعية الفرنسية ..

ومع جمال (كارمن موراى) ، وسحرها ، وذكائها ، وملايين الفرنكات ، التى تحمل توقيع جهاز المخابرات الألمانى ، كان من الطبيعى أن تحتل حفلاتها موقعًا متميزًا ، فى قلب المجتمع الباريسى ، العاشق للفن والجمال ..

وعلى الرغم من كل هذا ، ومن الأسماء السياسية والعسكرية اللامعة التى ترتاد صالونها وحفلاتها ، لم تحاول (كارمن) قط إلقاء سؤال مُريب واحد ، أو حتى التنصت على أحاديث ضيوفها ، ولم تبذل أدنى جُهد للحصول على معلومة واحدة ، مهما بلغت أهميتها أو خطورتها ..

ومهما بلغت أهمية صاحبها ومناصبه ..

هذا لأن (كارمن) كانت تعيش مرحلة الكمون وهى المرحلة التى لا يهتمُّ الجاسوس فيها إلا بتثبيت أقدامه فى المجتمع الذى زرع نفسه فيه فحسب ، دون أن يأتى أية أفعال مهما بلغت بساطتها من شأنها أن تُثير من حوله ولو الحد الأدنى من الشك والريبة ..

ثم إن مهمة (كارمن) كانت واضحة ، ومباشرة ومحدودة ..

لقد أسند إليها الهر (هيدريتش) رئيس (الجستابو) بنفسه مهمة جمع كل المعلومات الممكنة حول خط (ماجينو) ..

وكان عليها أن تحمى وتؤمن نفسها ، حتى تبلغ غايتها ..

بأية وسيلة ..

وأى ثمن ..

ولقد لعبت (كارمن) دورها ببراعة منقطعة النظير ، دون أدنى خطأ ، طوال عام كامل ، توطّدت خلاله علاقاتها بعدد لا بأس به من الضباط الفرنسيين ، وكبار الساسة ، وموظفى وزارة الخارجية ، الذين صاروا رهن إشارتها ، وعلى أتم الاستعداد لتنفيذ مطالبها ، أيًّا كانت ..

وعلى الرغم من كل هذا ، لم تلق (كارمن) على أحدهم سؤالاً واحدًا ، حول خط (ماجينو) واستحكاماته ، ووسائل النقل الكهربية داخله ..

حتى جاء الأمر على نحو ، بدا طبيعيًا وتلقائيًا للغاية ..

فكعادة أبناء الطبقة الأرستقراطية ، فى ذلك الحين ، لم تلبث (كارمن) أن أبدت مللها وضجرها من تلك الحفلات الصاخبة ، ومن الحياة الرغدة المُرفهة فى (باريس) وضواحيها ، وراحت تنقل هذا الإحساس إلى كل المحيطين بها ، والمُقربين إليها ، على نحو هادئ منتظم ، يخلو من أية لمحة تعمُّد ..

وبطبيعة الحال ، راحت الاقتراحات تنهال عليها من الجميع ، لتفادى ذلك الملل والتغلب عليه ، وأخذت تستمع إلى تلك الاقتراحات فى صمت ولا مبالاة ظاهرية ، وفى نفس الوقت الذى درس فيه عقلها كل الاقتراحات بدقة ، حتى أتاها ذلك الاقتراح برحلة خلوية إلى الريف ..

ولم يكن من الصعب مع المناقشات التى أعقبت ذلك الاقتراح ، أن توافق (كارمن) فى شىء من الملل على الخروج فى رحلة ، بالقرب من خط (ماجينو) الشهير ..

والواقع أن ما فعلته (كارمن ميرى موراى) عند خط (ماجينو) ، كان هو العبقرية والبراعة نفسهما ، فى عالم المخابرات ..

إنها لم تتلهف قط للذهاب إلى أى موقع من مواقع الخط الدفاعى الأسطورى ، وإنّما تركت سحرها يأتى أثره فى ضباطه ، الذى بهرتهم تلك الحسناء القادمة من (باريس) ، فراحوا يتقربون لها ، ويحاولون مجاذبتها أطراف الحديث ، ودعوتها لزيارتهم فى مواقعهم ، دون أن يخطر ببالهم لحظة واحدة أنهم يبيعون أسرار وطنهم لجاسوسة ألمانية ..

وبأبخس ثمن ..

وكانت (كارمن) ذكية إلى أقصى حد ، فى هذا المضمار ..

إنها لم تزر أى موقع سوى مرة واحدة ، ولم تُبد أى اهتمام مُبالغ بأى موقع ، وإنّما تركت ذاكرتها الفوتوجرافية تلتقط كل ما تقع عليه عيناها ، وتخزنه فى ذاكرتها بدقة مذهلة ، وبموهبة خارقة ، هى أبرز مقوماتها كجاسوسة محترفة ..

ولا شك فى أن الهر (هيدريتش) قد شعر بالإعجاب والانبهار والتقدير ، عندما وصلت رسائل (كارمن) ، التى تحمل ، وبمنتهى الدقّة ، تفاصيل خط (ماجينو) ، بمواقعه الحقيقية ، وتلك الزائفة ، ونظام العمل داخله ، ووسائل نقل الأسلحة الكهربية ، والمعسكرات تحت الأرض ، وحقول الألغام المحيطة بالخط الدفاعى ، وشباك اصطياد الدبابات والمدرعات ..

وكان من الطبيعى أن ينقل (هيدريتش) كل تلك المعلومات إلى (هتلر) ، الذى أثنى عليه ، وعلى جاسوسته الحسناء ، وراح يعد خطتَه لاقتحام الخط الأسطورى ، واحتلال (فرنسا) ، كخطوة للامتداد إلى كل (أوربا) و(روسيا) ..

وكان أكبر خطأ أن يبلغ أمر هذا الثناء أذنى (كارمن) فى (باريس) ..

فلقد أسكرتها نشوة النجاح ، وجعلتها تفقد حذرها الأسطورى ، وحرصها الخرافى ، وهى تجلس مع اثنين من الضباط الفرنسيين فى فندق (جورج الخامس) ، فانزلق لسانها يتحدّث ببعض المعلومات السرية ، التى جمعتها عن خط (ماجينو) عندما تطرّق الحديث ـ بعد بضعة كئوس من الخمر ـ حول اجتياح (هتلر) لدول (أوروبا) ومخاطر الحرب المحتملة ..

الشىء الذى لم تنتبه إليه ، وهى تفعل هذا ، هو أن رفيقيها كانا من المكتب الثانى ..

أو بمعنى أدق ، من جهاز المخابرات الفرنسى ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، تم اعتقال (كارمن ميرى موراى) وأودعت فى سجن النساء (بيكيت روكيت) فى ضواحى (باريس) بتهمة التجسّس لحساب الألمان ..

والعجيب أن (كارمن) ظلّت فى سجنها من مايو 1939م ، وحتى أبريل 1940م ، دون أن يستجوبها أو يحاكمها أحد ، ثم عقدت لها بعد ذلك محاكمة عسكرية عاجلة أدانتها بتهمة التجسّس ، وأصدرت حكمها ضدها بالإعدام رميًا بالرصاص ..

والأكثر عجبًا أن الرئيس الفرنسى قد تدَخل بنفسه ليخفض الحكم من الإعدام إلى السجن مدى الحياة ..

ولا أحد يمكنه الجزم بالسبب ، الذى دفع الرئيس الفرنسى إلى تخفيف الحكم ، فى تلك الفترة بالذات !!

أهى جنسية (كارمن) السويسرية أم أنها انتصارات الألمان الساحقة ، التى وضعتهم على مشارف (فرنسا) ، كقوة لا يحسن إغضابها ، دون مبرر قوى ومنطقى ، لا يقبل المناقشة والجدل ؟

المهم أن (كارمن) قد بقيت فى سجنها لبضعة أسابيع فحسب ، قبل أن يجتاح الألمان خط (ماجنيو) ، وينهار أمامهم الجيش الفرنسى ، فتدخل جيوشهم النازية (باريس) ، دخول الفاتحين المنتصرين ..

وكان من الطبيعى أن يتم إطلاق سراح (كارمن) على الفور ..

ولكن غير الطبيعى أن يستدعيها الهر (هيدريتش) بنفسه ، لتقابله فى مكتبه فى (برلين) .

والواقع أن (كارمن) قد سافرت إلى (برلين) ، وكل ذرة فى كيانها ترتجف توتراً ، وخوفاً وانفعالاً ، وبعقلها عشرات الأسئلة بلا جواب .

لقد ارتكبت خطأ رهيبًا فى (باريس) ، وهى تعلم أن عشرات الجواسيس قد تم إعدامهم لهفوات أقل ..

فما الذى يدخره لها الهر (هيدريتش) فى (برلين) ؟

ومن المؤكَّد أن ذلك السؤال لم يفارق رأسها لحظة واحدة ، حتى أصبحت أمام الهر (هيدريتش) فى مكتبه ، تواجه نظراته الصارمة القاسية ، التى انهار أمامها رجال أكثر منها قوة ، وأكبر منها حجمًا ..

وفى صراحة باردة ، راح (هيدريتش) يوبخها على خطئها ، ويُشير إلى ما يلقاه أمثالها مقابل هذا ، حتى سقط قلبها بين قديمها ، وتصوَّرت أنها هالكة لا محال .

ولكن (هيدريتش) فاجأها بأمر آخر ، لم يخطر على بالها قط .

لقد أمرها بالسفر إلى (بلجيكا) و(هولندا) ، وبذل قصارى جهدها ؛ لجمع كل المعلومات الممكنة عن رجال المقاومة فى البلدين ، بعد أن تضاعفت قوتهم ، وصاروا مصدر إزعاج شديد للقوات الألمانية المحتلة ..

وبروح مفعمة بالارتياح والحماس ، سافرت (كارمن) إلى (هولندا) وبدأت تُمارس عملها الجديد هناك ..

ومرة أخرى ، أثارت انبهار قادتها ، وإعجابهم ، ودهشتهم أيضًا .

إنها لم تنجح فى مهمتها فحسب ، وإنّما بلغت فيها شأنًا فاق كل توقعاتهم ..

بل وكل أحلامهم أيضًا ..

لقد كشفت أمر رجال المقاومة ، ووسائل اتصالاتهم ، وشفرتهم الخاصة ، ومخابئهم ، ومخازن أسلحتهم ، بل وأماكن اختفاء أسرهم أيضًا ..

وبفضل معلوماتها راح رجال المقاومة يتساقطون كالذباب ، فى (هولندا) و(بلجيكا) ، على نحو آثار دهشة الطرفين بلا استثناء ..

ولكن العجيب أن هذا لم يرض قائد (الجستابو) فى البلدين !!

فعلى الرغم من سقوط العشرات من رجال المقاومة ، إلا أن الزعماء الكبار ظلّوا بمأمن مما يحدث ، بل وضاعفوا شراسة هجماتهم وعنفها ، حتى أن قائد (الجستابو) قد اتهم (كارمن) بأنها عميلة مزدوجة ، تعمل لحساب الجانبين فى آن واحد .

وكان رد فعل (كارمن) مدهشاً .. إلى أقصى حد !!

لقد هاجمت قائد (الجستابو) بعنف ، وصاحت فى وجهه :

ـ حذار أن تنطق بهذا مرة أخرى ، وإياك أن تُحاول تعليمى كيف أقوم بعملى مرة أخرى ، خاصة وأننى أعرف أكثر مما يُتاح لمثلك معرفته بكثير .. كثيرًا جدًا ..

ولقد ذُهل الضابط المرافق ، لما تجرّأت (كارمن) على فعله وقوله ، فى وجه رجل يرتجف العمالقة لسماع اسمه ..

بل وأذهله أكثر أن قائد (الجستابو) الرهيب لم يفعل شيئًا إزاء هجومها الشرس العنيف هذا ..

كل ما فعله هو أن عقد حاجبيه ، واحتقن وجهه فى شدة ، وضمَ شفتيه فى غضب عارم ، دون أن يُوبّخ (كارمن) أو يُحاول منعها من الانصراف ..

وبعدها أرسل شكوى بهذا الأمر إلى الهر (هيدريتش) نفسه ..

ومع تجاهل (هيدريتش) للشكوى برمتها ، بات من الواضح أن (كارمن ميرى موراى) قد بلغت شأنًا لم تبلغه امرأة مثلها ، فى العهد النازى ، إذ صارت فوق كل مساءلة أو محاسبة ..

وكان هذا يعنى أن ما تجلبه من معلومات بالغ الأهمية والخطورة ..

إلى أقصى حد ..

ولكن لكل شىء نهاية ..

حتى أهمية (كارمن) وخطورة مهمتها ..

فمع مشاكلها التى لا تنتهى ، مع رجال (الجستابو) ، كان من الطبيعى أن يتم نقلها إلى موقع آخر ..

وفى هذه المرة اختار لها (هيدريتش) موقعًا متميزًا فى معتقل النساء فى (ريفنسبروك) ، على بُعد خمسين ميلاً ، شمال مدينة (برلين) ..

ولقد حازت (كارمن) شهرة واسعة داخل ذلك المعتقل ، فقد أبرز الموقع وجهاً آخر لها ، لم ينتبه إليه أحد من قبل ..

وجه سادى دموى بشع ..

فعلى الرغم من أن (كارمن) قد دخلت المعسكر منتحلة شخصية سجينة ، لكى تندس وسط المعتقلات ، وتكشف أساليبهن وأخبارهن ، إلا أن قسوتها فى التعامل مع الأخريات فاقت كل حد ممكن ، والأهوال التى ارتكبتها هناك يشيب لها الولدان ..

ولأن لكل شىء نهاية ، كما سبق أن قلنا ، فقد انتهت الحرب العالمية الثانية ، وانهزمت (ألمانيا) ، وتقدّم السوفيت لتحرير كل المعتقلات فى معتقل (ريفنسبروك) ، وكل المعتقلات الأخرى ، فى الجانب الشمالى الشرقى من (برلين) ..

وعندئذ اختفت (كارمن) ..

اختفت تمامًا ، دون أن تترك خلفها أدنى أثر ، لتظهر بعد شهر واحد فى (برلين) الغربية ، بجواز سفرها السويسرى ، وبراءة الأطفال ، التى استطاعت دائمًا رسمها فى عينيها ، وهى تُعلن أنها كانت سجينة سياسية فى (ريفنسبروك) ثم تُضيف فى خبث أنها تعرف كل سجّانات ذلك المعتقل الرهيب ، وكل موظفيه وموظفاته ، وحتى عمال النظافة فيه ..

ولأن هم الجميع ، فى تلك الفترة ، كان مطاردة قيادات النازى ، ومجرمى الحرب ، وسجّانى المعتقلات البشعة ، فقد استعان بها البريطانيون ، لتعرّف بعض سجّانى (ريفنسبروك) ، وإلقاء القبض عليهم ..

وكان هذا يشبع تلك النزعة السادية العجيبة ، فى أعماق (كارمن موراى) ..

لقد أوقعت بالفعل العشرات من سجّانى المعتقل مستعينة فى هذا بذاكرتها الفولاذية ، ونظراتها الفوتوجرافية ، التى لا تنسى شيئًا قط ..

وكما يحدث دائمًا ، ثملت (كارمن ميرى موراى) بنشوة انتصارها ونجاحها فى خداع الجميع ، وراحت تُمارس عملها الجديد فى حماس وانفعال ، وكأنّما لم يعد لها من هدف سوى الإيقاع بكل من عملت معهم من قبل ..

ومن الواضح أن هذا كان يبعث فى نفسها لذة لا تفوقها لذة ، مع طبيعتها السادية القاسية وهى ترى الضحية تسقط فى يد جلاديها ، وقد شملها رعب وفزع لا حدود لهما ، وانهار كيانها كله ، أمام مصيرها المحتوم ..

ومع استمرار اللعبة ، تضاعفت لهفة (كارمن) وساديتها ، حتى أنها لم تتمالك نفسها ، عندما لمحت (دوروثيا بينز) إحدى حارسات معسكر (ريفنسبروك) فى إحدى ضواحى (برلين) ، فلقد صرخت ، وانتفضت ، وقفزت من سيارة الجيش البريطانى ، وانطلقت تعدو نحو (دوروثيا) ، وجذبتها من شعرها بعنف شديد ..

وعلى الرغم من أن الحارسة قد استسلمت للبريطانيين دون مقاومة ، إلا أن نظرة الرعب ، التى حدجت بها (كارمن) قد أثارت انتباه واهتمام أحد رجال المخابرات البريطانيين ، فتساءل عن سر خوفها الشديد من أسيرة عادية ، التقت بها يومًا فى

معتقل ما ، وراح يتحرّى الأمر بمنتهى الدقّة ، ثم لم يلبث هذا أن قاده إلى حقيقة (كارمن) كاملة ..

وكانت مفاجأة مدهشة للجميع ، وفى الثالث والعشرين من ديسمبر عام 1946م ، بدأت محاكمة (كارمن ميرى موراى) ، مع دستة من الرجال والنساء ، بعدة تهم خطيرة ، تتراوح بين التجسّس ، والتعذيب والقتل ، والوحشية مع المعتقلين العزّل ..

وفى البداية بدت (كارمن) قوية متماسكة ، إلا أنها لم تلبث أن توترت بشدة ، وصارت عصبية للغاية ، عندما انكشفت معظم أسرارها للجميع ، وبات من الواضح أن عقوبتها ستكون قاسية وصارمة للغاية ..

وفى نهاية المحاكمة ، فى ربيع 1947 م ، صدر الحكم بإعدام (كارمن) شنقًا ، وتم نقلها إلى سجن (التونا) فى (هامبورج) استعدادًا لتنفيذ الحكم .

ولكن يبدو أن (كارمن) قد رفضت أن تنتهى حياتها على هذا النحو ؛ لذا فقد تحايلت على الأمر حتى حصلت بوسيلة ما على شفرة حادة ، يُحظر وجودها فى السجون ..

وذات صباح ، وأثناء الاستعداد للنهوض ، عثرت حارسة سجن (التونا) على (كارمن ميرى موراى) قتيلة فى زنزانتها ، بعد أن قطعت شرايين معصميها بتلك الشفرة الحادة ..

ودون أن يشعر أحد ، تم دفن (كارمن) فى مقبرة ملحقة بالسجن ، وانتهت حياتها فى صمت ، ثم لم يلبث التاريخ أن أهملها بدوره ، وأصبحت ، على الرغم من حياتها الحافلة مجرّد صفحة مجهولة ..

صفحة من صفحات الجاسوسية ، تحمل صاحبتها غير المعروفة اسماً بلغت شهرته الآفاق ، فى عالم الفن والموسيقى ..

اسم (كارمن) .

★ ★ ★

وسام الخيانة ..

(كيم فيلبى) ..

واحد من أشهر الجواسيس الذين عرفهم التاريخ ، وأطولهم عمرًا ، فى هذا المضمار ..

وربّما أكثرهم قُربًا ، من بلوغ أعلى مرتبة ، فى عالم الخيانة ..

هذا لأن (فيلبى) البريطانى الجنسية ، الهندى المولد ، والذى ترقى فى جهاز المخابرات البريطانى (إم أى 6) ، حتى كاد يصبح رئيسًا له ، قد قضى ثلاثين عامًا من عمره جاسوسًا لحساب السوفيت ..

نعم .. ما قرأته صحيحًا ..

المرشح لمنصب مدير المخابرات البريطانية ، كان جاسوسًا سوفيتيًا ..

ويا لها من مهزلة !

ولا تسأل نفسك أيّة كارثة كانت ستحدث ، لو أن (فيلبى) قد فاز بذلك المنصب بالفعل ؟!

فهذا شيء لا يصلح ، حتى فى روايات الإثارة ، المسرفة فى الخيال ..

والعجيب ، بل والأكثر عجبًا ، أن بدايات (كيم فيلبى) كانت تؤكد فى وضوح أنه شيوعى المذهب ، وسوفيتى النزعة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تم قبول ترشيحه فى المخابرات البريطانية !!

وليس هذا هو الأمر العجيب الوحيد ، فى هذه القصة الطويلة .. فالغرابة تبدأ حتى من قبل أن يولد (كيم) .. من عهد والده (جون فيلبى) الأب ..

فالأب كان شخصية غريبة الأطوار ، وله علاقات عديدة فى الشرق الأوسط ، ويُقال : إنه لعب دورًا كبيرًا فى دفع الثورة العربية ضد (تركيا) ..

وبعد الاستقلال وانتهاء الحرب ، ثار (فيلبى) الأب على الخيانة البريطانية للعرب ، وذهب للعيش فى المملكة العربية السعودية ، حيث أشهر إسلامه ، وتزوّج من امرأة عربية ، وراح يُحذر ابنه (هارولد أدريان راسل فيلبى) ، (كيم فيلبى) فيما بعد ، من التعامل مع المخابرات البريطانية مهما كانت الأسباب ..

وفى ذلك الوقت ، كان (فيلبى) الابن قد التحق بجامعة (كامبريدج) عام 1929م ، وارتبط بصلات وثيقة بعدد من الماركسيين ، وعلى رأسهم (جاى بيرجيس) ، و(رونالد

ماكلين) ، اللذين رشّحاه لإحدى الخلايا الشيوعية ، فصار عضوًا شديد الحماسة بها ..

وخلال عطلاته الصيفية كان (فيلبى) يتجول فى (أوروبا) الشرقية ، حيث شاهد العديد من البشاعات النازية ، إلى الحد الذى جعله يتحول فى عام 1934م ، إلى شيوعى متحمس ، وجندى ضد النازية ، على حد قوله فيما بعد ..

ولكن الخطوة الحاسمة ، فى اتجاه (فيلبى) نحو الجاسوسية السوفيتية ، كانت فى (فيينا) فى (النمسا) ، عندما شاهد بعينيه القوات الحكومية ، وهى تقصف مساكن العمال ، وتقتل المئات منهم ، لمجرّد مطالبتهم ببعض المكاسب ..

ولقد التقطه هناك اثنان من أهم رجال المخابرات السوفيتية فى (أوروبا) ، وهما (تيودورمالى) و(جابوربيتر) ، اللذان جذباه إليهما ، وصارحاه بالأمر ، ثم أسندا إليه مهمة تهريب بعض الرسائل السرية عبر الحدود ..

ومع نجاح (فيلبى) فى مهمته ، قررت المخابرات السوفيتية أن تُسند إليه مهمة أكثر خطورة وصعوبة ، ألا وهى بذل أقصى جهد ممكن ؛ للالتحاق بجهاز المخابرات البريطانى ، واختراقه من الداخل ..

ولبلوغ هذه الغاية ، تم وضع خطة مُعقدة طويلة الأجل ، تعتمد أوّل ما تعتمد على محو تاريخ الحماس الشيوعى للجاسوس تمامًا ..

وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو مستحيلاً ، فإن (فيلبى) قد بدأ عمله بمنتهى الحماس ، فور عودته إلى (بريطانيا) ، فانضم إلى الزمالة الأنجلو ألمانية ، وطلق زوجته اليسارية (أليس فريد مان) ثم لم يلبث أن اشتغل لحساب جريدة (التايمز) اللندنية ، كمراسل متحمس للدفاع عن مبادئ الجنرال (فرانكو) ، فى الحرب الأهلية الإسبانية ، وكان لمقالاته الحماسية أكبر الأثر فى تعزيز يمينيته ..

وفى الوقت ذاته راح (فيلبى) يمد المخابرات السوفيتية بكل ما يحصل عليه من معلومات ، من بطانة (فرانكو) ومعاونيه ..

وفى تلك الفترة من حياته ، واجه (فيلبى) أوّل عقبة ، كادت تُدمر كيانه ومستقبله ..

لقد ألقى الوطنيون القبض عليه ، وهو يحمل فى جيبه وثائق سرية بالغة الأهمية ، يكفى الاطلاع عليها لإعدامه بلا رحمة ..

ولكن (فيلبى) قدّم لهم حافظته ، وتركها تسقط من يده أسفل المكتب ، وعندما انحنى المحقق لالتقاطها ، ابتلع (فيلبى) الوثائق السرية كلها ، قبل أن يطلب منه كوباً من الماء !

وفى عام 1939م ، تمكن (فيلبى) من قطع الخطوة الأولى لهدفه ..

والتحق بالمخابرات البريطانية ..

وبالتحديد بقسم (إم أى 5) المسئول عن مكافحة التجسس ، فى البلدان الخارجية .. ولقد تم له هذا بفضل نفوذ والد زميل دراسته الجامعية (جان بيرجيس) ، الذى رشحه للعمل فى المخابرات البريطانية ، وساعده على تجاوز إجراءات المراجعة والاستعلام ، حتى إنهم لم يدققوا كثيرًا فى ماضيه الشيوعى ، واكتفوا بتفسير والد صديقه ، الذى أكد أنها كانت مجرّد تفاهات مراهقة انتهى أمرها ..

ولكن لأن التحاقه بالجهاز لم يكن سليماً مائة فى المائة ، فقد حار رجال المخابرات البريطانية فى كيفية الاستفادة منه ، مما حدا بهم فى النهاية إلى إسناد وظيفة كتابية مكتبية إليه ..

وكان هذا أفضل ما يمكن أن يحلم به (فيلبى) ، إذ أتاحت له وظيفته هذه فرصة الاطلاع على مئات من التقارير ، والمعلومات ، التى ينقلها أولاً بأوّل إلى المخابرات السوفيتية ..

ومن هذه الوظيفة البسيطة ، بدأ نجم (فيلبى) يلمع ، فى جهاز المخابرات البريطانى ، فقد أتاح له منشأه أن يتقرب من

الطبقة العليا ، المهيمنة على رئاسة الجهاز ، فى نفس الوقت الذى ساعدته فيه طبيعته البسيطة على التقرب من الطبقة العادية ، التى تُدير الجهاز فعليًا ..

وفى أواخر عام 1944م ، ومع قُرب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، قرر البريطانيون إحياء القسم التاسع ، فى جهاز مخابراتهم ، والمسئول عن مكافحة الجاسوسية ، والتخريب السوفيتى ، بعدما بدا من الواضح أنه بعد انحسار النازية ، سيصبح السوفيت هم العدو رقم واحد للبريطانيين ..

وكانت المفاجأة أن مسئولية القسم التاسع هذا أسندت إلى (كيم فيلبى) ، على رأس مائة من رجال المخابرات البريطانيين ..

وكاد السوفيت يرقصون طربًا وظفرًا ، عندما بلغهم الخبر ..

لقد صار رجلهم رقم واحد فى (بريطانيا) ، هو المسئول الأوّل عن مكافحتهم فى مخابراتها ..

ويا له من نصر !

وخلال عام كامل ، وحتى 1945 م ، راح (فيلبى) يمد السوفيت بكل ما يقع تحت يديه من معلومات ، بالإضافة إلى قيامه بخدمة كبرى ، غيّرت مسار الحرب كلها ..

ففى ذلك الوقت .. كانت توجد مجموعة سرية فى (ألمانيا) ، مُعادية للنازية ، وللفوهلر (أدولف هتلر) شخصيًا ، وتسعى إلى عقد سلام منفرد مع الغرب ، لمواجهة الخطر السوفيتى ، وكانت هذه المجموعة تبذل جهدًا كبيرًا ، للاتصال بالمخابرات البريطانية ..

ولكن (فيلبى) حجب هذه الاتصالات تمامًا ، عن قيادة المخابرات البريطانية ، حتى لا يتفرغ الكل لمحاربة السوفيت ..

ولعل أبرز نتائج ما فعله (فيلبى) هو إصرار البريطانيين على أن رحلة (رودلف هيس) السرية إليهم ، لم تكن محاولة لعقد السلام ، وإنّما مجرّد خدعة نازية متقنة ..

وهذا يعنى أن (هيس) قد قضى عمره كله فى السجن ، بسبب (كيم فيلبى) ..

وعبر (فيلبى) ، أيضًا مرّر السوفيت عشرات المعلومات المضللة ، إلى المخابرات البريطانية ، لسنوات وسنوات ..

ثم كانت المفاجأة ..

ففى وقت واحد تقريبًا ، وفى نهايات عام 1945م ، فر عضوان من المخابرات السوفيتية إلى الغرب ، وهما (أيجور جوزينكو) ، كاتب الشفرة فى السفارة السوفيتية فى (أوتاوا) (كندا) ،

و (قسطنطين فولكوف) أحد كبار مسئولى المخابرات السوفيتية فى (إسطنبول) ..

وكانت هذه أكبر صدمة تلقاها (فيلبى) ، فى تلك الفترة ..

فكل من الرجلين كان يمتلك ما يكفى لكشف أمره أمام المخابرات البريطانية أو الأمريكية ..

صحيح أن البرقيات لم تحمل قط اسمه الحقيقى المباشر ، وإنّما كانت تتحدث عن اسمه الرمزى (ستانلى) ، على نحو يؤكّد أنه هو نفسه (فيلبى) ..

وفى تلك الفترة فكر (فيلبى) جديًا فى الفرار إلى (موسكو) ، خاصة وأنه كان أيامها ينقل كل تفاصيل برنامج (فينونا) لحل الشفرة ، إلى المخابرات السوفيتية ، ولكن أحد كبار المسئولين فى الجهاز السوفيتى طمأنه ، وأخبره أن التحقيقات مع الرجلين لن تبلغه قط ..

وكان السوفيتى على حق ..

فمعلومات (فولكوف) عن (ستانلى) كانت محدودة ، فى حين لم يكن لدى (جوزينكو) ما يكفى لفضح الأمر بشكل سافر ..

والدليل على هذا أن المخابرات البريطانية قامت بترقية (فيلبى) ونقله إلى منصب يفوق ما يمكن أن يحلم به جاسوس فى موضعه ..

لقد أصبح حلقة الاتصال ، بين (إم أى 6) والمخابرات المركزية الأمريكية مباشرة ..

ومع وصوله إلى (واشنطن) ، عام 1950م ، بدأ (فيلبى) يحصل ، بحكم منصبه على معلومات بالغة الأهمية حول العمليات الاستخبارية الأمريكية ، والمشاريع المشتركة بين الجهازين ..

وبالطبع ، انتقل كل هذا إلى المخابرات السوفيتية ..

وبكل التفاصيل ..

وأدرك السوفيت أن خطتهم تسير على ما يُرام ..

وأن رجلهم يتغلغل أكثر وأكثر ، ليس فى الكيان البريطانى وحده ، ولكن فى النظام الأمريكى أيضًا ..

وبحكم موقعه ، كرئيس لمكتب الاتصالات البريطانية فى (واشنطن) ، علم (فيلبى) مبكرًا أن عملية (فينونا) لفك الشفرة السوفيتية تحقق تقدمًا ، يكفى لكشف واحد من أهم وأخطر جواسيس السوفيت فى بريطانيا ، والذى يرمز إليه باسم (هومر) ، والذى هو فى الواقع السياسى البريطانى (دونالد ماكلين) ، الذى يعمل فى السفارة البريطانية فى (واشنطن) ..

وبناءً على هذه المعلومات قرر (يورى مودين) ، المسئول عن العملية ، فى المخابرات السوفيتية ، تهريب (ماكلين) إلى (موسكو) بأسرع ما يمكن ، قبل أن يفقد أعصابه ، وينهار ، ويكشف عن كل من يعلم بأمرهم ..

ولقد كان (فيلبى) من أشد المتحمسين لتهريب (ماكلين) ، إذ أن هذا الأخير كان صديقاً شخصيًا له ، وقد يلقى القبض عليه الكثير من ظلال الشك على حقيقته هو أيضًا ..

وإلى (واشنطن) ، وصل الجاسوس السوفيتى (جاى بيرجيس) ، للقيام بمهمة تهرب (ماكلين) ، وقضى ليلة فى منزل (فيلبى) ..

وكانت هذه هى القشة ، التى قصمت ظهر البعير ..

فلأن (كيم فيلبى) كان مُرشحًا ، فى تلك الفترة ، مع نهاية الخمسينيات ، لمنصب مدير جهاز المخابرات البريطانى (إم أى 6) ، فقد كانت العيون كلها تطلّع إليه ، وتراقبه فى اهتمام ..

لذا فقد تم رصد زيارة (بيرجيس) له ..

وقضاؤه ليلة فى منزله ..

وكانت هذه أول بذرة شك ، نبتت فى قلب الأمريكيين ، الذين نقلوا شكوكهم كلها إلى البريطانيين ..

ولكن البريطانيين لم يُتابعوا الأمر بالجد الكافى !!

وهذه نقطة أخرى بالغة العجب ، فى قصة (فيلبى) ..

وربّما لا يدرى أحد لماذا تجاهل البريطانيون هذا ؟!

ولكن فى عام 1961م ، جدّ ما جعل من المستحيل تجاهل الأمر ..

ففى ذلك العام ، وقع الجاسوس البريطانى (جورج بلاك) ، فى قبضة (إم أى 6) ، وراح يدلى باعترافات مُثيرة ، حول عمله لحساب المخابرات السوفيتية ، وتحدّث عن العميل (ستانلى) ، ثم ذكر بعض ما يربط بينه وبين (فيلبى) ..

وفى تلك الفترة ، كان (كيم فيلبى) يعمل لحساب المخابرات البريطانية فى (بيروت) ، تحت ستار مراسل صحفى ، فقرر جهاز المخابرات البريطانى استدعاءه ، والتحقيق معه بهذا الشأن ..

وما إن بلغت تلك المعلومات رجل المخابرات السوفيتى (موين) ، وإن لم يعلم أحد قط كيف بلغته ، حتى قرر السفر بسرعة إلى (بيروت) ، وتحذير (فيلبى) ، والاتفاق معه على خطة الفرار ..

وكان من الطبيعى أن يُصاب (فيلبى) بالذعر ، وأن يُطالب (موين) بالسفر من (بيروت) إلى (موسكو) مباشرة ، إلا أن

هذا الأخير نجح فى أن يُهدئ من روعه ، وفى إقناعه بالعودة إلى (بريطانيا) ، والخضوع للاستجواب الأولى ، لمعرفة مدى معلومات (إم أى 6) عنه ، وبعدها يُبادر بالفرار إلى (موسكو) ..

وكان (موين) يعتمد ، فى خطته هذه ، على النمط الروتينى البريطانى ، الذى سيؤجل عملية إلقاء القبض الرسمى على (فيلبى) ، لما بعد الحصول على دليل مادى لإدانته ..

ولا ريب فى أن (موين) كان شديد الإقناع ، إذ عاد (فيلبى) بالفعل إلى (لندن) ، وخضع لاستجوابات (إم بى 6) هناك .. بل وقدّم اعترافًا محدودًا ، بما يُدرك أنهم يعلمونه بالفعل ..

وفى الثالث والعشرين من يناير عام 1963م ، وأثناء حفل غداء استأذن (فيلبى) من مضيفه ، وانسحب من الحفل ، و ..

واختفى تمامًا ..

وجنّ جنون رجال المخابرات البريطانية ، وراحوا ينبشون الأرض بحثًا عن (كيم فيلبى) ، دون أن يتوصّلوا إلى أدنى أثر ..

وبعد ستة أسابيع بالضبط ، ظهر (فيلبى) فى (موسكو) ، التى أعلنت قبولها لحق لجوئه السياسى إليها ..

وكانت فضيحة عالمية ..

المرشح لمنصب مدير المخابرات البريطانية جاسوس سوفيتى ، قضى أكثر من ثلاثين عامًا ، قبل أن ينجح فى الفرار إلى (موسكو) ..

وبينما يدارى البريطانيون رءوسهم خجلاً ، ويعلن الأمريكيون غضبهم ، لأن حلفاءهم رفضوا الاستماع إليهم ، كان (فيلبى) يبتسم ظفرًا ، ويحلم بمنصب رفيع فى المخابرات السوفيتية ، وبوسام (لينين) ، أرفع الأوسمة السوفيتية ..

ولكن السوفيت كان لهم رأى مختلف ..

فكما يحدث دائمًا ، كان من المستحيل أن يضمّوا خائنًا لصفوفهم ، حتى ولو كان قد عمل لحسابهم منذ نعومة أظافره !

فالخائن هو الخائن دائمًا ..

لا يمكن أن يؤتمن أبدًا ..

من أدراهم أنه لن يلعب معهم اللعبة نفسها ، لحساب الغرب هذه المرة !!

أما بالنسبة للوسام ، فقد تعللوا بأن القانون يمنع منحه ، إلا للمواطنين السوفيت وحدهم ..

صحيح أنهم منحوه منزلاً أنيقاً ، ومكافأة جيدة ، إلا أن هذا كان كل ما يمكنهم منحه إياه ..

ثم تجاهلوه تمامًا بعدها ..

ولسنوات طوال ، عاش (كيم فيلبى) يحلم بالوسام ، ويُطالب به ، والسوفيت يتجاهلونه .. بل ويقللون امتيازاته مع مرور الوقت ..

وفى عام 1980 م ، طلب (أندروبوف) ، رئيس جهاز المخابرات السوفيتى من (فيلبى) أن يعاونه كمستشار ، خاص بالمخابرات البريطانية ، ومنحه مكتبًا صغيرًا ، وراتبًا يقل عما كان يحصل عليه من امتيازات ..

واجتر (فلبيى) مرارته وواصل عمله البسيط فى ظلّ تجاهل تام وهو يحلم بالوسام ويُطالب به كل يوم ..

حتى حصل عليه أخيرًا ..

ولكن على جثّته ...

فبعد موته فقط ، عام 1988 م ، وأثناء وضعه فى قبره وضع السوفيت على صدره وسام (لينين) ..

ثم أهالوا عليه التراب ..

ودفنوه مع وسامه ..

وسام الخيانة ، الذى أفنى من أجله عمره ..

وانتماءه ..

وكرامته ..

إلى الأبد .

★ ★ ★

أشهر جاسوس ميّت ..

ما من شك ، فى أن كل من يعمل فى أى جهاز مخابرات فى العالم يُدرك جيدًا أن هذا الجاسوس بالذات يختلف عن أى جاسوس آخر فى كل الحروب ..

وكل الأزمان ..

صحيح أن المهمة التى قام بها لحساب المخابرات البريطانية فى أحرج أيام الحرب العالمية الثانية ، حققت نجاحًا مُبهرًا ، وجعلت الانتصار على الألمان أكثر قُربًا ووضوحًا ..

ولكن هذا ليس سبب تميزه ..

فالماجور (ويليام مارتين) قد حصل فى تاريخ المخابرات ، على مكانة متميزة للغاية ، لا يمكن أن ينافسه فيها أحد ..

هذا لأن المأجور (مارتين) قد بدأ عملية المخابرات البريطانية وهو ..ميت ..

نعم .. إنك لم تُخطئ قراءة الكلمة !

لقد كان بالفعل ميتًا ، عندما بدأ مهمته ..

وعندما نجح فيها ..

ولكى يمكنكم فهم واستيعاب هذا الأمر العجيب ، دعونا نعود إلى البداية ..

والبداية كانت فى خريف عام 1942م ، عندما قرر الحلفاء أن يكون هدفهم التالى هو احتلال جزيرة (صقلية) كقاعدة انطلاق إلى قلب (أوروبا) ..

ولأن الهدف هام وخطير للغاية ، ومن الممكن أن يدركه الألمان ويستوعبوه ، فقد صار على جهاز المخابرات البريطانى ، أن يبذل قصارى جهده ، ويعتصر مخه وخبراته ؛ لإيجاد وسيلة مبتكرة تُخفى الأمر عن العدو ، أو تصرف أنظاره عنه إلى هدف آخر بأسلوب بارع وماكر ومبتكر ..

وبالذات مبتكر ..

وفى أحد الاجتماعات العديدة ، التى أُجريت فى هذا الشأن ألقى ضابط مخابرات شاب الفكرة المجنونة ..

« ماذا لو ألقينا جثّة لأحد الضباط البريطانيين ، بحيث تظهر على شواطئ (إسبانيا) ، حاملة بعض الوثائق ، التى تُوحى بأننا نستهدف (سردينيا) ، وليس (صقلية) ؟!

وفى البداية بدت الفكرة مجنونة ومبالغة إلى أقصى حد ..

ولكن هذا ، فى حد ذاته ، كان سببًا فى رضا الجميع عنها ، واعتبارها أفضل ما تم اقتراحه ، فى هذا الشأن ..

ومع نهاية الاجتماع ، صدر قرار جماعى بالموافقة على الخطة ، ووضعها موضع التنفيذ ، بأقصى سرعة ممكنة ..

وبعد ساعة واحدة ، كان القسم المختص ، بمعاونة عدد من الأطباء ، يبحث مواصفات الجثة ، التى ينبغى أن تظهر عند شواطئ (إسبانيا) ..

كانت العقبة الوحيدة ، هى أن الشخص ، الذى يغرق فى المحيط لابد وأن تحتوى رئتاه على الماء ، وهذا أمر لا يمكن صنعه بوسائل غير طبيعية ، كما يمكن أن يكشف التشريح عدم وجوده ، فتفشل الخطة كلها ..

لذا ، فقد بدأت عملية البحث عن شخص فى حوالى الثلاثين من عمره ، مات بسبب امتلاء رئتيه بالماء ..

ولم يكن ذلك بالأمر السهل ..

أو المستحيل ..

وبعد جهد جهيد ، عثر الرجال على بُغيتهم ..

رياضى شاب ، مات بالتهاب رئوى حاد ، أدى إلى حدوث ارتشاح فى الرئة ..

وبالنسبة للطب الشرعى ، فى تلك الفترة ، كان هذا يكفى لصنع الخدعة المطلوبة ..

وعلى الفور ، بدأت عملية الاتصال بأهل المتوفى ومن المؤكد أن دهشتهم كانت كبيرة ، عندما فوجئوا بمندوب من المخابرات البريطانية ، يلتقى بهم سرًا ، ويطلب منهم التنازل عن جثة ابنهم ، دون أن يحق لهم معرفة سبب هذا ، أو الغرض منه ، أو يسمح لهم بإلقاء أية أسئلة ..

كل ما قاله مندوب المخابرات البريطانية ، بمنتهى الحزم والحسم ، هو أن هذا لصالح (بريطانيا) فى حربها ضد النازية ..

وكان هذا يكفى ؛ ليمنحه الجميع موافقتهم ، بشرط واحد فقط ..

ألا يتم ذكر اسم ابنهم الحقيقى أبدًا ..

ولهذا ، فمنذ تلك اللحظة ، حملت الجثة اسم الماجور (ويليام مارتين) ، حتى يومنا هذا ، وتم وضعها فى ثلاجة كبيرة ، لحين إعداد الوثائق اللازمة ، لمنح الأمر صورة طبيعية ، إلى أقصى حد ..

وكان هذا يحتاج إلى دراسة كل ما يتعلق بأى ماجور شاب ، فى مثل الظروف المطلوبة ..

فى البداية ، كان ينبغى تزويد الماجور (مارتين) ببطاقة هوية حقيقية ، وفى سبيل هذا ، تم التقاط أكثر من مائتى صورة لوجه صاحب الجثة ، ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال ففى كل الصور ، بدا من الواضح تمامًا أن صاحبها ميت بالفعل ، على الرغم من كل ما فعله عباقرة المكياج وتغيير الوجوه ..

ولهذا ، بدأت عملية البحث عن صورة لشخص ما ، يمكن أن يكون هو الماجور (ويليام مارتين) فى حياته ..

وبأمر أشبه بالمعجزة ، عثر الرجال على صورة لمجند فى البحرية ، يشبه (مارتين) المزعوم ثمانين فى المائة تقريبًا ، وبقليل من الرتوش ، وكثير من البراعة ، تحولت صورته إلى صورة الماجور التى حوتها هويته العسكرية فى حافظته ..

وفى الحافظة نفسها ، وضع الرجال إشعارًا من بنك (كويد) بأن حسابه مكشوف بثمانين جنيهًا ، وعليه دفعها على الفور ، بحيث يوحى بأنه ذو طبيعة مبذرة ..

ولأن الضباط الشبان ، العزّاب على وجه الخصوص ، لديهم علاقات ومشكلات عاطفية ، فقد صنعت المخابرات البريطانية لجاسوسها صديقة جذّابة ، منحوها اسم (بام) ووضعوا صورتها فى حافظته ، وعليها إهداء رومانسى منها ، كما

وضعوا فى جيبه رسالتين بتوقيعها ، تم فتحهما وطيهما عدة مرات ، حتى يوحى الأمر بأنه قد قرأهما مرات ومرات ..

ولأن رجال المخابرات أيضًا يفكرون عادة بكل التفاصيل ، فقد وضعوا فى جيوب (مارتين) فاتورة بمبلغ خمسة عشر جنيهًا ، لشراء خاتم الخطبة من محلات (بيرل) وتذاكر أتوبيس مستعملة ، وبعض المفاتيح فى سلسلة بسيطة ، حفر عليها اسمه ، ونصفى بطاقتى مسرح ، تحملان تاريخ 20 أبريل ، للإيحاء بأنه قد اصطحب خطيبته إليها ، وكانت المسرحية تعرض بالفعل فى ذلك الحين ..

وفى النهاية ، وضعوا فى يد جاسوسهم ساعة (أوميجا) ، لتناسب عمره ودخله ، ثم أضافوا إلى كل هذا رسالة موجهة من رئيس الأركان ، إلى الجنرال (ألكسندر) قائد الجيش الثامن عشر الأفريقى ، تحوى الأسباب شبه الرسمية ، التى تحول دون حصول (ألكسندر) على موافقة رؤساء الأركان ، بشأن عملية اقترحها ، وتم دس بعض الجمل العابرة ، دون إشارة صريحة ، بحيث يفهم منها أن هذا الاقتراح المرفوض يتعلق بغزو (صقلية) ..

فى الوقت نفسه ، وضع الرجال مذكرة موجهة إلى أميرال الأسطول ، السير (كوبنجهام) ، القائد البحرى الأعلى فى البحر المتوسط ، من اللورد (لويس مونتنباتن) ، يشرح فيها مهمة

حامل الرسالة الماجور (مارتين) وفى نهايتها إشارة إلى أن القيادة تتمنى أن يعود إليها (مارتين) بـ(السردين) ، لشدة رغبتهم فى الحصول عليه ..

وكانت هذه أكثر نقاط الأمر براعة ، إذ أن الإشارة إلى « السردين » بهذا الأسلوب ، سيبدو لرجال المخابرات الألمان وكأنه تحايل لإخفاء حقيقة أن الغزو موجه إلى (سردينيا) .

وهكذا ، وبعد كل ما صنعه رجال المخابرات البريطانية ، أصبح الأمر قابلاً للتنفيذ ، ولا يحتاج إلا لموافقة رئيس الوزراء (وينستون تشرشل) ، الذى استحسن الفكرة ، وطلب إبلاغ الجنرال (إيزنهاور) بها ، باعتباره أكبر حلفاء (بريطانيا) فى الحرب العالمية الثانية .

وفى السادسة مساءً ، من التاسع عشر من أبريل عام 1943م ، تحركت الغواصة البريطانية (سارف) حاملة الماجور (ويليام مارتين) ، داخل تابوت معدنى يمتلئ بالثلج ، طوله مائة وتسعون سنتيمترًا ..

ولقد استغرقت الرحلة إلى قرب شواطئ (إسبانيا) مدة عشرة أيام ، دون أن يشتبه فيها العدو ، أو ينتبه إلى وجودها ، فوصلت إلى هدفها على بُعد كيلومتر ونصف من الشاطئ ، فى

الرابعة والنصف فى صباح التاسع والعشرين من أبريل 1943م ، حيث أخرج التابوت إلى سطح الغواصة ، وتمت إحاطة (مارتين) بسترة نجاة تحمل اسم (ماى ويست) ، ثم تركه طاقم الغواصة للأمواج تحمله إلى الشاطئ ، وهم يؤدون له التحية العسكرية .. وعلى بُعد كيلو متر آخر ، وللإيحاء بأن طائرة ما قد سقطت ، تم إلقاء طوق نجاة ، من النوع المستعمل فى الطائرات ..

ومنذ تلك اللحظة ، أدرك رجال المخابرات البريطانية أنهم قد أدوا مهمتهم بنجاح ، وأن ما تبقى قد أصبح فى يد المخابرات الألمانية ، وأن كل ما عليها هو أن تبتلع الطعم ، وتهضم الخدعة إلى أقصى حد ..

وفى صباح الثلاثين من أبريل التقط صياد إسبانى الجثّة ، بالقرب من شاطئ (إسبانيا) وأبلغ السلطات الإسبانية التى نقلت الجثّة إلى المستشفى لفحصها وتشريحها وتحديد سبب الوفاة .

وفى سرية بالغة تم تسريب الخبر إلى الألمان ، الذين أسرعوا يوفدون أحد أطبائهم ، مع واحد من ضباط مخابراتهم لفحص الجثّة ، وتشريحها واتخاذ ما يلزم ، نظرًا للزى العسكرى الذى ترتديه ..

ولم تتدخل السفارة البريطانية فى الأمر قط ، نظرًا لأنه لم يرد إليها أى خبر رسمى بهذا الشأن ..

وقام الطبيبان ، الإسبانى والألمانى بتشريح جثَّة (مارتين) .

وهنا تجلت عبقرية جهاز المخابرات البريطانى ، فقد جاء تقرير التشريح ، الذى حمل توقيع الطبيب الإسبانى ، وحده بالطبع ، ليُعلن أن سبب الوفاة هو الغرق ..

وفى الثانى من مايو ، تسلم القنصل البريطانى جثَّة الماجور (مارتين) وقام بدفنها فى مقبرة مدينة (هوليجا) الإسبانية بكل ما توافر له من مراسم رسمية وعسكرية ..

وفى الوقت نفسه الذى تم فيه دفن ذلك البريطانى المجهول ، الذى لا يزال قبره يحمل اسم الماجور (ويليام مارتين) حتى هذه اللحظة ، كان رجال المخابرات الألمانية يقومون بتصوير ونسخ كل ورقة ، تم العثور عليها فى ثياب (مارتين) ، حتى تذاكر المسرح والأوتوبيس ، وخطابى خطيبته (بام) ..

وبأسلوب لا يحدث إلا فى الطوارئ العظمى اجتمع فريق من أكبر وأقوى وأبرع رجال المخابرات الألمانية ، لدراسة الموقف كله ، وفحص كل ما تم العثور عليه مع (مارتين) ..

وهنا ، وللمرة الثانية تجلت عبقرية المخابرات البريطانية ، عندما غرق الألمان فى الخدعة حتى أنوفهم ، ووجدوا كل شىء منطقيًا للغاية ، حتى خطابات (بام) كانت مكتوبة بخط وأسلوب أنثويين .

لقد حلَّل خبراؤهم النفسانيون أسلوب (بام) وأكدوا أن شخصيتها تناسب الارتباط بواحد من ضباط الجيش البريطانى ..

وفى الرابع من مايو ، تلقى القنصل البريطانى رسالة سرية من (لندن) تقول : إن الماجور (مارتين) بخلاف القواعد والتعليمات المعتادة ولظروف غير تقليدية كان يحمل بعض الوثائق والأوراق السرية ، التى ينبغى إبلاغ الحكومة الإسبانية المحايدة بضرورة إعادتها للأهمية البالغة ..

ولأن البريطانيين قد استخدموا فى رسالتهم شفرة قديمة يُدركون جيدًا أن الألمان قد حصلوا عليها من قبل ، فقد تمكن أولئك من قراءة الرسالة ، وابتسموا فى ثقة ، لأنهم وقعوا بالفعل على صيد ثمين ..

أما الأسبان ، فقد أعادوا كل الأوراق إلى البريطانيين ، داخل مظروف مُغلق ، مختوم بالشمع الأحمر ، وبخاتم المخابرات الإسبانية ، مؤكدين أن كل الأوراق كانت محفوظة فى مكان أمين ، وأن أحدًا لم يطّلع عليها قط ، و ... و ...

وبطبيعة الحال ، أبدى القنصل البريطانى تفهمه للأمر واقتناعه به ، وشكر الإسبان كثيرًا على اهتمامهم ، وحُسن تقديرهم للأمور ، واستجابتهم السريعة للمطالب البريطانية ..

وشعر الإسبان بالارتياح ، لأن البريطانيين لم يُعلنوا غضبهم ، أو يُطالبوا بتحقيق أو استجواب ما ..

ومن ناحية أخرى ، أسرع الألمان يضعون كل ما حصلوا عليه أمام قادتهم ، على أعلى مستوى ليُعيدوا دراسة الأمر ثانية .. وليتخذوا القرار المناسب بشأنه ..

وعلى مستوى أعلى عاد الألمان يدرسون الأمر ، ويُعيدون فحص كل الأوراق والمستندات ..

بل وامتد الأمر إلى دراسة الموقف كله ..

ومرة ثالثة ، أثبت البريطانيون أنهم رجال مخابرات على أرفع مستوى ، وبالذات فى تلك الفترة .

فعلى الرغم من أن الألمان قد أعدوا لجنة على أعلى مستوى ممكن لإعادة دراسة الموقف كله ، فإن النتائج لم تختلف كثيرًا ..

هذا لأن البريطانيين لم يكتفوا بما فعلوه ، وإنّما واصلوا اللعبة بمنتهى الدقّة والحنكة والمهارة ..

فقد تم وضع لوحة رخامية على قبر (مارتين) لا تزال تشهد ، حتى هذه اللحظة ، على ذكاء المخابرات البريطانية ودهائها ، إبان الحرب العالمية الثانية ..

وأرسلت الجالية البريطانية فى (إسبانيا) إكليل زهور إلى قبره .. وكختام للخدعة ، وتتويجاً لها ، تم إدراج اسم الماجور (ويليام مارتين) فى الركن المخصص لقتلى الحرب فى جريدة (التايمز) التى صدرت بتاريخ 1943/6/4م ..

وكنتيجة لكل هذا ، تم رفع الأمر إلى الأدميرال (كارل دوينتز) وإلى (هتلر) نفسه ، لاتخاذ قرار فى هذا الشأن ..

ولم يختلف الأمر كثيرًا عند هذا المستوى الأرفع ..

فحتى (هتلر) نفسه ، بعد اطلاعه على الوثائق ، أكد أن هجوم الحلفاء الرئيسى سيتجه إلى (سردينيا) فى (اليونان) وليس إلى (صقلية) ..

وبناءً على هذا نقل الألمان فرقة كاملة من الدبابات ، من (فرنسا) إلى (اليونان) ، للدفاع عن طرق المواصلات والموانئ ، التى جاء ذكرها فى وثائق (مارتين) .. كما ثبّتت القيادة البحرية الألمانية عددًا من الألغام بعرض الساحل اليونانى ، ونصبت عليه مدفعية ساحلية قوية ، ونظمت دوريات بحرية ليلية ونهارية من قاذفات الطوربيد ..

ثم كان الخطأ الأكبر ، عندما نقل الألمان أسطول الزوارق البحرية السريعة ، من (صقلية) إلى (اليونان) فى أواخر يونيو ..

وبينما انشغل الألمان فى مراقبة مضيق جبل (طارق) الذى توقعوا أن يأتى الهجوم منه ، انقض الحلفاء على (صقلية) كالإعصار ..

فقد كان نقل الأسطول ، من (صقلية) إلى (سردينيا) سببًا فى وجود ثغرة ضخمة عبرت منها قوات الحلفاء إلى النصر ..

وكانت مفاجأة مذهلة للألمان !

وفى الأوراق الشخصية للمارشال (روميل) أشار هذا الأخير إلى أن غزو (صقلية) قد تم بغتة ، فى الوقت الذى كانت فيه القوات الدفاعية الألمانية مشتتة ، بسبب العثور على جثّة حامل بريد دبلوماسى على شاطئ (إسبانيا) ذات يوم حار ..

أما (أدولف هتلر) فقد بلغ غضبه ذروته وراح يصب كل هذا على رءوس كل من اتخذ قرارًا فى هذا الأمر ، مُتجاهلاً أنه كان أحد أصحاب هذه القرارات الحاسمة ..

أو بمعنى أدق كان على رأسهم ..

والأدميرال (دوينتز) الذى كان مسئول الدفاع الأول حينذاك أصابه الذهول .

وأرسل ثلاث مرات للتأكّد من أن أخبار الهجوم على (صقلية) صحيحة !

كل هذا ولم يخطر ببال مسئول ألمانى واحد ، أن كل ما حدث كان مجرّد خدعة متقنة ، أعدتها المخابرات البريطانية ببراعة منقطعة النظير !

بل ولم يرد أى ذكر لهذا الأمر ، حتى انتهت الحرب العالمية الثانية ، ووضعت أوزارها عام 1945 م ، وسقطت (ألمانيا) وانتحر (هتلر) ..

وحتى بعد أن حسمت القنابل النووية الأمر فى النهاية ..

ثم استقرت الأمور ، ورأى البريطانيون أنه ينبغى أن يُعلنوا الأمر ..

وأن تبدأ عملية التفاخر بالإنجازات ..

وهنا .. هنا فقط ، تم إعلان الأمر ..

وانبهر العالم كله بما يسمع ..

وتدفّق المئات على ذلك القبر فى (هيوليجا) الإسبانية ، وراحوا يغمرونه بالزهور ، عرفانًا بالدور الذى قدّمه لبلاده ..

ولكن المشكلة أن الجميع وجهوا كل شكرهم إلى شخص لا وجود له ..

إلى الماجور (ويليام مارتين) الذى صنعه البريطانيون ..

وليس إلى الشخص الحقيقى ، مجهول الاسم والهوية ، الذى يرقد فى ذلك القبر ..

الشخص الذى قدّم لبلاده خدمة جليلة ، بعد أن لقى مصرعه بالفعل ، والذى حمل إلى الأبد لقبًا خاصًا متميزًا فى سجلات المخابرات ..

لقد صار أشهر جاسوس .. ميت !

* * *

صانع الجواسيس ..

من هو أشهر رجل مخابرات فى العالم أجمع بلا مُنازع ؟!

لو أنك طرحت هذا السؤال على أية شريحة من البشر ، فى أية دولة فى العالم ، لحصلت بسرعة على أول جواب يقفز إلى الأذهان ، وأول اسم يرتبط بالوجدان ، عند الحديث عن عالم المخابرات ..

أية مخابرات ..

(جيمس بوند) ..

فذلك الجاسوس البريطانى ، الذى يحمل رقم صفر صفر سبعة ، مع تصريح بالقتل ، ويرتكب كل خطايا وموبقات الدنيا ، فى سبيل خدمة التاج ، صار ، منذ الخمسينيات وحتى الآن ، أشهر جاسوس تتداول اسمه الألسن ، وتربح منه السينما الملايين والملايين كل عام ، وهو يواجه أصابع ذهبية ، وعيون ذهبية ، ومسدسات ذهبية ، دون جرام واحد من الفضة ..

الكل يعرفه ..

ويحفظ اسمه ورقمه عن ظهر قلب ..

ولكن قليلين فقط من يعرفون اسم مبتكره (آيان فليمنج) ..

والأقل جدًا .. بل والنُدرة ، هم من يعلمون أن (فليمنج) نفسه كان جاسوسًا مُدهشًا ، ورجل مخابرات لا يشق له غبار ، ولا تفشل واحدة من خططه وأفكاره المبتكرة قط ..

و(آيان فليمنج) هذا ولد لأبوين بالغى الثراء ، من أبناء الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية ، وقضى الشطر الأكبر من عمره كطالب مواظب ، أنيق الملبس والأسلوب ، إلا أنه اشتهر دائمًا بالنشاط الزائد ، والانخراط فى كل الأنشطة الممكنة ، من جماعات الخطابة إلى الكشافة البحرية ، كما أظهر ميلاً ملحوظًا للمغامرة والمخاطرة ، وخاصة فى فترات المعسكرات الصيفية والرحلات الخلوية ..

ولكن كل هذا لم يشفع له فى النجاح أو التفوق ، إذ أنه ، وعلى الرغم من كل هذا النشاط ، كان يُعانى كسلاً بالغًا ، كلما تعلق الأمر باستذكار دروسه وآداء واجباته ، حتى انتهى به الأمر إلى الفصل من المدرسة الداخلية الفخمة ، التى ألحقه بها والده ، بسبب مغامراته التى تجاوزت كل الحدود المعقولة ..

ولأن والدته كانت إنجليزية عريقة ، من طراز لا يقبل الفشل ، فقد قررت أن تلعب دور الأب والأم معًا ، بعد وفاة زوجها ،

وأجبرت (آيان) على الالتحاق بإحدى الكليات العسكرية ، التى قبلته بين صفوفها ، احترامًا لذكرى والده ، ولوساطة أقرباء أمه ، الذى يحتلون كلهم مكانة سياسية رفيعة ..

والتحق (فليمنج) بالكلية العسكرية البريطانية ، إلا أن هذا كان آخر شىء يُناسب طبيعته ، إذ لم يلبث أن عاد إلى عبثه ومغامراته ، وتورط فى مشكلة عاطفية مع زوجة قائد الكلية ، مما دفع هذا الأخير إلى فصله بلا رجعة ..

وهكذا استقر الحال بالشاب المغامر فى شركة السمسرة والأوراق المالية ، التى تمتلكها أسرته ، والتى ما زالت تحمل لقبها حتى أيامنا هذه ، فى بورصة الأوراق المالية فى (لندن) ..

كان هذا فى صيف 1939 م ، عندما بلغ (فليمنج) الواحدة والثلاثين من عمره ، وحصل على منصبه الرفيع فى الشركة ..

والعجيب أن (فليمنج) قد حقق نجاحًا مُدهشًا ، خلال فترة عمله القصيرة ، ووضع بعض الأفكار المبتكرة ، التى ضاعفت الأرباح مرتين ، قبل أن يمل هذا العمل المكتبى ، ويقدم استقالته إلى أمه ، التى جن جنونها ، وحاولت منعه من هذا ، وإقناعه بالعودة إلى الشركة ، ومواصلة خطة زيادة الأرباح ، إلا أنه فرّ من (لندن) كلها ، هربًا من مواجهتها ، وراح يقضى بعض الوقت فى منزل تمتلكه الأسرة فى (ليفربول) ..

والعجيب أن قراره هذا كان مدخله إلى عالم المخابرات ، الذى قدّر له أن يضع عليه بصمته ، ويحفر فيه اسمه بحروف من ذهب ..

ففى (ليفربول) التقى (فليمنج) بصديق قديم لأسرته ، وهو الأدميرال (جون جودفرى) ، الذى كان يشغل فى تلك الفترة منصب رئيس المخابرات البحرية البريطانية ، والذى لفت الشاب انتباهه ، بنشاطه الجم وذكائه الواضح ، وعقليّته الإبداعية الخلاقة ..

ولأن (جودفرى) كان على ثقة بحكم منصبه وخبراته فى أن الحرب آتية لا ريب ، فقد وضع (فليمنج) فى رأسه كما يقولون ، وراح يدرس تصرفاته وأسلوبه ، طوال فترة وجودهما معًا فى (ليفربول) ، ثم لم يلبث أن واجهه ذات صباح ، قائلاً :

(آيان) .. هل تعلم فيم أعمل بالضبط ؟!

ابتسم الشاب ابتسامة خبيثة ، وهو يُجيب :

لا اعتقد أن هذا يخفى على أحد يا أدميرال .

بدا له (جودفرى) صلبًا صارمًا ، جامد الوجه والملامح كعادته ، وهو يقول :

هل ترغب فى العمل معى إذن ؟!

أجاب الشاب فى سرعة :

ـ ومن يمكن أن يرفض أمراً كهذا ؟!

وهكذا ، وبتلك البساطة ، صار طالب الكلية العسكرية المفصول ، وسمسار البورصة السابق ، يحمل رتبة ضابط فى البحرية ..

ولقب رجل مخابرات بريطانى ..

وما إن اندلعت الحرب العالمية الثانية ، حتى تفجرت كل المواهب الخلاقة فى أعمال (آيان فليمنج) ..

وكل الأفكار المجنونة ..

فى البداية ، خُيل للأدميرال (جودفرى) أنه قد أساء الاختيار ، ووقع على أرستقراطى مخبول ، لا تتفق أفكاره قط مع الواقع والعقل ..

ولكنه انتبه فجأة ، إلى أن (فليمنج) هذا رجل مخابرات عبقرى ، وأنه ما خلق إلا لهذا المضمار بالذات ..

فكل أفكار (فليمنج) كانت تصدم سامعيها فى البداية ، ثم لا تلبث أن تجد صدى فى عقولهم ، ومنها إلى قلوبهم ، وتقفز بعدها لتحتل مكانة لا مثيل لها ، فى عالم الابتكار والنجاح ..

ولعل أبرز هذه الأفكار كان الإذاعة الألمانية الموجهة ..

فطوال فترة الحرب ، كان الألمان يستمعون إلى إذاعة ألمانيا ، ناطقة بالعامية ، تنقل إليهم أخبار قادتهم وجبهتهم ، على نحو يوحى بأن فريقًا من جنرالات الجيش ، المعارضين للنازية هم من يبثها ، من مكان مجهول داخل (ألمانيا) وخاصة مع خطبها الساخنة ، التى تدعو لرفعة (ألمانيا) ، وتُهاجم الحلفاء وقادتهم ، إلى الحد الذى وصفت فيه رئيس الوزراء البريطانى (وينستون تشرشل) بأنه يهودى بدين مُصاب بالأمراض التناسلية ، وأشبه بالخنزير المريض ..

وربّما كان هذا الوصف وما يشبهه ، هو السبب فى كل ما تصوّره الألمان عن تلك الإذاعة المجهولة ، والسبب فى ارتباطهم بها بشدة ، دون أن يخطر ببال أحدهم ، حتى قادتهم أنفسهم ، أنها إذاعة بريطانية بحتة ، يتم بثها من قلب (لندن) ، تحت إشراف (فليمنج) نفسه ، الذى كان يدس السم فى العسل يوميًا ، ويتسلل إلى أعماق الروح المعنوية الألمانية ، لينسفها نسفًا ، من خلال قصص ملفقة عن قادة الألمان وساستهم ، وعن الجنرال المسرف ، الذى ابتاع لصديقته معطفًا من الفراء ، يكفى ثمنه لإطعام لواء كامل ، والآخر الذى ترك المعركة على الجبهة الروسية ، لينعم بالدفء فى البلقان ، تاركًا جنوده يغرقون فى الجليد حتى آذانهم ، وأقدامهم تتجمد فى البرد .. و ... و ...

والطريف أن (فليمنج) قد تعرض للمساءلة ، بسبب وصفه للساسة البريطانيين ، والذى يبدو بذيئاً للغاية ، عندما يلقى بالعامية الألمانية ، إلا أنه دافع عن نفسه بأنه لو لم يفعل هذا لما استطاع جذب الألمان إلى سماع إذاعته ، أو إقناعهم بكل ما يدسه لهم من أخبار ..

وانتهى التحقيق بحصول (آيان فليمنج) على مكافأة سخية ، وإطلاق يده فى نسج المزيد من تلك الأفكار المجنونة ..

وهذه النقطة الأخيرة بالذات كانت أكبر مكافأة حصل عليها (فليمنج) فى حياته كلها ..

أن تُطلق يده فى الأفكار والابتكارات ..

مهما بلغ جنونها ..

ومن هذا المنطلق بدأ (فليمنج) عملية جديدة ، أطلق عليها اسم (العرّاف) ..

ولقد اعتمدت هذه العملية على دراسة شخصية (رودلف هيس) ، نائب (أدولف هتلر) ، الذى يبدى اهتمامًا دائمًا بعلم الفلك وقراءة الطالع ، ثم الاستعانة باثنين من علماء الفلك السويسريين ، الذين تم تجنيدهم لحساب المخابرات البريطانية ، لتقديم النصائح وقراءة الطالع بصورة دائمة للنائب (هيس) ، وعلى نحو كان

يعده (فليمنج) بنفسه ، بحيث أصبح (هيس) على اقتناع شديد بأن اللحظة الحاسمة قد حانت ، وبأنه لو سعى للسلام ، فسيصبح أعظم رجال القرن على الإطلاق ..

وكان كل هدف (آيان فليمنج) هو أن يزرع بذرة الشقاق بين (هتلر) ونائبه ، بحيث يؤدى هذا إلى تفتيت الجبهة النازية ، وضعف قيادتها ، وانهيارها فى النهاية ..

ولكن يبدو أن خطة الشاب كانت بارعة أكثر مما ينبغى ..

فالأمر لم يقتصر على الشقاق فحسب ، وإنّما غامر (هيس) بأن استقل طائرته بنفسه ؛ ليهبط فى إنجلترا ، ويدعو للسلام ، ولكن البريطانيين أسروه هناك وظلّ فى السجن كمجرم حرب ، حتى مات فى عام 1989 م ..

وفى أواخر عام 1941 م ، تم نقل (فليمنج) إلى محطة المخابرات البريطانية فى (نيويورك) ، كمحاولة لإقناع (أمريكا) بدخول الحرب ..

ولأن الأمريكيين لا يقدمون شيئًا بلا مقابل ، فقد طلبوا من (فليمنج) ، أثناء وجوده فى (نيويورك) ، أن يتعاون مع رجلهم (ويليام دونوفان) ، مستشار الرئيس الأمريكى (روزفلت) ،

لوضع بذرة إنشاء وكالة استخبارات ، كانت نواة جهاز المخابرات الأمريكية المركزية الحالى ..

ولكن (آيان فليمنج) بكل ما يتمتع بـه من نشاط وحب دائم للمغامرة لم يكن من الممكن أبدًا أن يكتفى بهذا الدور البسيط فـى عالم المخابرات ، من وجهة نظره ؛ لذا فقد نجح فى التسـلل إلـى العالم السفلى فـى (نيويورك) ، وجنـد عـدداً مـن المجرميـن واللصوص ، وخبراء فتح الخزائن للعمل لحسابه ، ثم استخدمهم لفتح خزانة معدنيـة خفيـة ، فـى مكتب القنصل العام اليابـانى ، ليقوم هو بتصوير كل أوراق رموز الشفرة السرية داخلها ..

ولقد كانت مفاجأة مذهلة للبريطانيين ، أن تصلهم هذه الشـفرة ، التـى بذلـوا جهدًا خرافيًا فـى السـابق للحصـول عليهـا ، دون أن يطلبوا من (فليمنج) هذا ..

ودون أن يعاونه أى من رجالهم ..

وكالمعتـاد ، تم التحقيـق مـع (فليمنـج) ، لاسـتعانته بمجرمـى ولصوص الشـوارع ، وتعـرض للـوم والتقريـع كالمعتـاد ، ولكنـه دافع عن نفسه بأن هؤلاء القوم لا يشـغلون رءوسـهم بالسياسـة وتعقيداتها ، ثم إنهم تصوّروا طوال الوقت أنهم جزء من عمليـة تجسس صناعية ، وليست سياسية ..

وكان من العسر أن يُعاقب (فليمنج) بعد عملية ناجحة كهذه ، لذا فقد اكتفى رؤساؤه بتوجيه اللوم إليه ، وإعادته إلـى (لندن) ليواصل عمله وأفكاره المجنونة هناك ..

وفور عودتـه إلـى الوطـن أغلـق (فليمنـج) علـى نفسـه بـاب مكتبه ، وراح يعد أكبر فكرة مجنونة فى حياته ..

وبعد أسبوع كامل ، من الدراسة والتفكير ، خـرج (فليمنـج) لرؤسائه بفكرة إنشاء الوحدة رقم (30) ..

وهذه الوحدة هى فرقة خاصة مـن (الكومـاندوز) تتبـع المخـابرات البحرية مباشرة ، ويتم تدريبها على نحـو خـاص للغايـة ، بحيث يمكنها القيام بعمليات مستحيلة ، خلف خطوط العدو ..

وفى ذلك الحين ، كانت الفكرة عجيبة بالفعل ..

ومجنونة إلى أقصى حد ..

ولكنهـا ، وككل أفكـار (فليمنـج) ، وجـدت صدى خاصًا فـى نفوس الجميع ، وخاصة مع دراسـة مدى الفائدة الجمّة ، التـى يمكن أن تعود من إنشاء وحدة كهذه ..

وأخيرًا صدر القرار ..

وولدت الوحدة الهجومية رقم (30) .

وطوال ما تبقى من زمن الحرب ، قامت الوحدة رقم (30) بعمليات انتحارية مدهشة ، لا يصدقها عقل ، خلف خطوط العدو ..

وبالذات فى الجبهة الفرنسية ..

ولعل أهم وأخطر عملياتها ، التى تمت ، تحت قيادة (آيان فليمنج) مباشرة ، كانت عمليات (محطة الرادار) ، و(الأرشيف البحرى) ..

ففى عام 1944 م ، قاد (فليمنج) وحدته القتالية ، وهبط معها خلف خطوط العدو ، حيث قامت الوحدة بالسيطرة على محطة رادار ألمانية كبيرة ، ظلّت ترصد الطائرات البريطانية ، وتحبط هجومها لفترة طويلة ، وتم الاستيلاء عليها لفترة طويلة ، وتم الاستيلاء عليها بالكامل ، وأسر حاميتها المكونة من أربعين ضابطاً وثلاثمائة جندى ، ونقلت معداتها كلها إلى (لندن) ، حيث تمت دراستها وإعادة تركيبها ..

وقبل أن يلتقط رؤساؤه أنفاسهم ، من انبهارهم بتلك العملية المدهشة ، التى خسرت الوحدة رقم (30) خلالها فردًا واحدًا ، فاجأهم (فليمنج) بعملية (الأرشيف البحرى) ، التى كادت تذهب بعقول الألمان ، والتى أثارت جنون (أدولف هتلر) نفسه ..

فمع معاناتهم من دقة وبراعة المخابرات البحرية الألمانية ، كان البريطانيون يبذلون جهدًا مضنيًا ، لكشف الجواسيس الألمان ،

ودراسة أساليب تفكيرهم ، ومحاولة تحليل خططهم ونظمهم ، والعمل على تجنيد بعضهم ، لنقل ما يمكن نقله من وثائقهم وسجلاتهم السرية إلى البريطانيين ..

ولأن (فليمنج) قد اعتاد التفكير بأسلوب مبتكر ، مختلف ، خلاق ، فقد طرح سؤالاً بدا بالغ الغرابة ، فى أول اجتماع عام :

ـ لماذا لا تقوم الوحدة (30) بعملية انتحارية ، للاستيلاء على قسم الأرشيف البحرى الألمانى بالكامل ، وعلى سجلاته التى تعود إلى عام 1870 م ؟!

ومع غرابة الفكرة وجنونها ، احتاج الأمر إلى أسبوعين كاملين ، من البحث والفحص ، والمناقشة ، والمراجعة قبل أن يوافق الرؤساء على الخطة ، ويصدر الأمر بتنفيذها بعد أن قرر الخبراء أن الخسائر ستبلغ أربعين فى المائة على الأقل من وحدة الهجوم .

وعندما اجتمع (فليمنج) بوحدته ، أبلغهم أن الخسائر ستبلغ سبعين فى المائة ، ثم طلب منهم قبول أو رفض المهمة ، ووعدهم بعدم سؤالهم عن الأسباب .

ووافق الجميع فورًا ..

وبلا استثناء ..

وبعقليّته الخلاقة ، راح (فليمنج) يضع خطة الاستيلاء على الأرشيف ، ووضع رسمًا لتوربين بحرى خاص ، تتم قيادته كالدراجة البخارية تحت الماء ، بحيث يمكن لرجاله بواسطته قطع مسافات طويلة تحت سطح البحر ، دون أن يمكن رصدهم ..

وفى (لندن) ، جلس (جودفرى) وفريق قادة المخابرات البحرية يحبسون أنفاسهم عندما انطلق (فليمنج) ورجاله لتنفيذ العملية ..

وراح الوقت يمضى ، ويمضى ، دون أن تصل رسائل ، تُشير إلى نجاح أو فشل العملية ..

وأخيرًا .. وفى الخامسة وسبع دقائق صباحًا ، وصلت رسالة (فليمنج) ..

رسالة مختصرة للغاية .. « نجاح تام .. الخسائر تساوى صفرًا .. »

وكان الخبر مذهلاً ، حتى إن الرجال لم يمكنهم تصديقه ، حتى عادت الوحدة (30) إلى (لندن) بنفسها ..

لقد نجح (فليمنج) ورجاله نجاحًا مذهلاً ، واستولوا على كل سجلات البحرية الألمانية ، دون أن يخسروا رجلاً واحدًا ..

بل ، ودون حتى إصابة واحدة ..

وكان هذا أغرب من أن يحدث ، حتى فى الروايات الخيالية ..

أو ربّما كان فعلاً قدريًا مقصودًا ، لتتويج أعمال (فليمنج) ، لأنها كانت آخر عملية له ، قبل أن تستسلم ألمانيا ، وتضع الحرب أوزارها ..

ومع نهاية الحرب ، عاد (آيان فليمنج) يشعر بالملل مرة أخرى ، على الرغم من أنه ظلّ يطرح أفكاره المبتكرة ، ويقوم بأعماله الخلاقة ، فى كل مكان تبلغه المخابرات البريطانية ، من شمال (إفريقيا) وحتى غرب (إسبانيا) ..

ولكن لكل شىء نهاية ..

لقد استغنت المخابرات عن خدماته أخيرًا ، ومنحته وسامًا ، ومكافأة كبيرة ، مع خطاب شكر ، يُشير إلى ما قدّمه للوطن فى زمن الحرب ..

وهكذا ، عاد (آيان فليمنج) إلى شركة أسرته ليُمارس أعمال السمسرة ، ويُضاعف من أرباحها .

إلا أن هذا ظلّ بالنسبة إليه سخيفاً مملاً ومضجراً إلى أقصى حد ..

لذا ، فقد راح (فليمنج) يشغل نفسه بكتابة روايات عن الجاسوسية ، بطولة عميل سرى خاص ، منحه اسم (جيمس بوند) وراح يغزل حوله الأساطير ، التى اقتبسها من خبراته السابقة ، ومن تاريخ حياة بعض الرجال ، الذين عرفهم فى حياته ، ومن خلال عمله ..

وحتى فى هذا ، فاق (آيان فليمنج) الجميع ، وصارت الشخصية التى ابتكرها هى أشهر شخصيات عالم الرواية والخيال ، من أقصى العالم إلى أقصاه ، وتُرجمت أعماله إلى ست عشرة لغة ، خلال عشرة أعوام فحسب ..

وفى عام 1964م ، وقبل أن يبلغ السادسة والخمسين من العمر ، مات (آيان فليمنج) ميتة هادئة فى فراشه ، تاركاً خلفه تاريخاً مجيدًا ، لا يعلم عنه العامة سوى ذلك الجزء المفرط فى الخيال فحسب ، والذى استحق بسببه أن يحظى بلقب ، استحق كل حرف منه عن جدارة ..

لقب صانع الجواسيس ..

★ ★ ★

جاسوس بلا هوية ..

خلت الشوارع من المارة أو كادت ، فى تلك الليلة الأخيرة ، من عام 1961م ، فى العاصمة الأمريكية (واشنطن) ، وانهمك كل الناس تقريبًا فى احتفالات رأس السنة ، وكتمت الجدران والنوافذ المُغلقة صدى الضحكات والمرح والفجور ، مع تساقط الثلوج الهادئ ، الذى اعتاد مشاركة الجميع تلك الساعات من كل عام ..

ووسط كل هذا ، تَحرَّك عدد من الرجال فى سرعة وخفة ، حاملين أسلحتهم الخاصة ، للإحاطة بمبنى قديم ، من ثلاث طوابق ، يبعد بضع مئات من الأمتار فحسب ، عن البيت الأبيض ، مقر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

وبإشارة مدروسة ، انقضّ نصف هؤلاء الرجال على المبنى ، وراح أحد الخبراء بينهم يُعالج رتاجه ، حتى فتحه ، فاندفع رفاقه إلى الداخل ، وراحوا يصعدون إلى الطابق الثالث ، بأحذيتهم المطّاطية ، حتى لا يصدر عنهم أدنى صوت ، وإن تحفّزت أسلحتهم لإطلاق النار ، عند أوّل بادرة شك ..

وفى الشارع ، ومن داخل سيارة كبيرة ، غمغم أحد رجال المخابرات الأمريكية فى توتر :

ـ هل كانت هناك ضرورة لكل هذا ؟! (بولارد) لا يستخدم أية أسلحة فى المعتاد ، كما يقول ملفه .

انعقد حاجبا رئيسه ، وهو يقول فى خشونة صارمة :

ـ مع ثعلب كهذا ، لا يُمكنك أن تَجزم بأى شىء .

انفرجت شفتا الرجل ، ليقول شيئًا ما ، ولكن يبدو أنه أدرك عدم جدوى المناقشة ، فى مثل هذه الظروف ، فأطبق شفتيه ، واكتفى بمتابعة ما يحدث ، فى حين قال رئيسه ، عبر جهاز اتصال محدود :

ـ حاصروا المكان جيدًا .. لا أُريد منحه فرصة واحدة للفرار .

أتاه صوت قائد فرقة الاقتحام ، حاملاً كل حسم وحزم الدنيا :

ـ لن يجد ثقباً للفرار ، حتى ولو تحوَّل إلى فأر صغير .

مطَّ الرجل شفتيه ، وغمغم :

ـ جيِّد .. هل بلغتم شقته ؟!

أجابه قائد الفرقة :

ـ نحن أمامها الآن .

هتف الرجل فى عصبية :

ـ ماذا تنتظرون إذن بالله عليكم ؟!

لم يكد هتافه يكتمل ، حتى اقتحم الرجال الشقة ..

كان اقتحامًا عنيفًا ..

وصامتًا ..

ولا تسألنى كيف يتفق هذا وذاك ؛ فالأمريكيون وحدهم يُمكنهم تحقيق هذا ، على نحو لا يفوقهم فيه أحد ..

وبسرعة مُدهشة ، ودون أن يشعر أحد من الجيران ، كان الرجال قد انتشروا فى الشقة كلها ، ومدافعهم مُشْهَرة على نحو شديد التحفُّز ، بحيث كانت قفزة قط صغير كافية ، ليتحوَّل المكان كله إلى قطعة من الجحيم ..

ومضت لحظات من الصمت ، أصابت القابع فى السيارة الكبيرة بتوتر شديد ، فهتف عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ هل ألقيتم القبض عليه ؟!

أتاه صوت قائد الفريق ، وهو يُجيب فى توتر مماثل :

ـ لا أحد هنا .

صرخ الرجل :

ـ لا أحد هنا ؟! ماذا تعنى يا رجل ؟! (بولارد) عندك حتمًا .. فريق التتبع أبلغنا أنه داخل شقته ، ولم يُغادرها حتى وصولنا ، فأين ذهب ؟! هل تبخر ؟!

أجابه قائد الفريق فى صرامة عصبية :

ـ ربَّما .. لو أنك تستطيع ذكر هذا فى تقريرك ، فربَّما يكون التفسير الوحيد .

ولم يستطع رجل المخابرات الآخر كتمان ابتسامته ، وهو يتمتم :

ـ لقد فعلها .

استدار إليه رئيسه بنظرة حادة غاضبة ، فأشار بسبَّابته إشارة مُبهمة ، وبحَّ صوته ، وهو يُضيف :

ـ ملفه يقول : إنه خبير فى هذا .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا رئيسه فى غضب شديد ، وهو يهتف عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ ابحثوا عنه .. اقلبوا الأرض كلها لو لزم الأمر ، ولكن اعثروا عليه .. لا أُريده أن ينجح فى الفرار .. لا أُريده أن يفعلها أبدًا .. أبدًا .

ومرة أخرى ، لم يستطع رجل المخابرات كتمان ابتسامته .. أو إخفاء إعجابه الشديد بذلك الجاسوس ، الذى نجح عن جدارة فى خداع جهاز المخابرات الأمريكى ..

بل وكل أجهزة المخابرات العالمية المعروفة ..

بلا استثناء ..

★ ★ ★

لا أحد يدرى متى وأين وُلِدَ (أرنست بولارد) بالتحديد ..

بل ولا أحد يمكنه أن يُجزم بأن هذا هو اسمه الحقيقى ..

فعندما ظهر فى (ألمانيا) ، مع بدايات عام 1938م ، كان شابًّا شديد الحماس للحزب النازى ، وأفكاره الجديدة ، ومؤيِّدًا بشدة لزعيمه (أدولف هتلر) ، الذى كان حينذاك خطيبًا مُفوَّهًا ، خلب لُب الشعب الألمانى ، وفجَّر فى كيانه حماساً قويًّا ، واحتلَّ مكانة كبيرة ، فى عقول معظم شباب (أوروبا) ، على نحو أقلق قادتها وزعماءها ، وجعلهم يضعون أيديهم على قلوبهم ، ويتساءلون عمَّا يُمكن أن تأتى به الأيام ، وقد بدا لهم المستقبل مُخيفًا ، وهم يتطلَّعون إليه عبر مناظير ، فاق سوادها شفافيتها ..

أيامها كان (بولارد) يحمل اسم (رودلف جلين) ، فى بطاقة

عضوية الحزب النازى ، ويجذب إليه أنظار الجميع ، بحماسه البالغ ، وقدرته المُدهشة على تكوين العلاقات والصداقات ، والترويج لمبادئ الحزب ..

وكان الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يجذب إليه أنظار قادة الحزب ، لأن خطة المرحلة القادمة كانت تحتاج لأمثاله ، ممن يُمكنهم جذب الملايين إلى الحرب القادمة ، والتى من المُخطَّط لها أن تجتاح (أوروبا) كلها ..

وذات ليلة ، وبينما يعود (بولارد) إلى منزله الصغير ، فى أحد ضواحى (برلين) استوقفه رجل بدين أصلع ، قائلاً :

ـ هر (جلين) .. ألديك بعض الوقت ، لنتحدَّث معًا فى أمر ما ؟

لم تبد أية علامة للدهشة أو الانزعاج على وجه (بولارد) ، وهو يسأله :

ـ أى أمر ؟!

مال الرجل نحوه ، هامسًا :

ـ أمر يهم (ألمانيا) كلها .

تطلَّع إليه (بولارد) بشىء من الهدوء ، ثم استدار قائلاً :

ـ تعال ..

أدهش أسلوبه الحاسم الحازم رجل المخابرات الألمانى ، إلا أنه تبعه فى صمت وهدوء ، وما إن استقرّ بهما المقام فى المنزل البسيط المتواضع ، حتى قال البدين :

ـ نُريدك معنا ، فى المرحلة القادمة .

تراجع (بولارد) فى مقعده ، وسأله فى هدوء :

ـ من أنتم ؟! وما الذى تقصده بالمرحلة القادمة ؟!

ابتسم البدين ، وبدت عليه علامات الإعجاب بجرأة (بولارد) وهدوئه ، وقال بلهجة حازمة :

ـ دعك من الجزء الثانى من السؤال ، فلن تحصل على الجواب أبدًا .. فى هذه الظروف على الأقل ، أما عن الجزء الأوَّل ، فهذا يُجيبك عليه . وأخرج من جيب معطفه بطاقة ، قدَّمها إلى (بولارد) ، الذى قرأ عليها اسم المخابرات الألمانية ، فانعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ هل تريدنى أن أعمل لحسابكم ؟!

اتَّسعت ابتسامة البدين ، وهو يقول :

ـ التعبير الأصح هو أن تعمل معنا يا هر (جلين) .. لقد اختارتك القيادة شخصيًا ، للالتحاق بالمخابرات الألمانية .

كان ما يعرضه البدين ، هو حلم أى شاب ألمانى ، فى تلك الفترة ، والأمر الذى يُمكن أن يُضحى من أجله بأغلى ما فى الوجود ؛ لذا فقد كانت دهشة البدين عارمة مُتفجِّرة ، عندما تراجع (بولارد) فى توتر ، قائلاً :

- أأنا مضطر لقبول هذا ؟!

حدّق البدين فى وجهه ، قائلاً بلهجة أقرب إلى الذهول :

إننا نعرض عليك الالتحاق بالمخابرات الألمانية .. ألا ترغب فى خدمة بلادك ؟!

أجابه (بولارد) فى سرعة :

- أنا مُستعد للتضحية بحياتى نفسها ، فى سبيل (ألمانيا) ، ولكن الواقع أن طبيعتى تنفر من الوظائف .

هتف البدين :

- هذه ليست وظيفة عادية .

أجابه فى توتر :

- ولكنها وظيفة .

مضى شطر طويل من الليل ، فى محاورة بينهما ، بدت وكأنها

بلا نهاية ، ولكن البدين انصرف فى نهايتها ، وهو أكثر دهشة وحيرة ، مؤكدًا أنه سينقل الأمر إلى رؤسائه ، ولكنه عاجز عن استنباط رد فعلهم ، إزاء هذا الرفض غير المسبوق ، فى تاريخ المخابرات الألمانية كلها ..

ولكن العجيب أن رؤساءه قد تقبّلوا الأمر ..

بل وتضاعف إعجابهم بالشاب (بولارد) أيضًا ..

وبعد أسبوع واحد ، كان (بولارد) يجلس بحضرة (هملر) ، أخطر رجل فى (ألمانيا) النازية ، بعد (هتلر) نفسه ..

وعندما انتهت المقابلة ، كانت النقاط قد وُضِعت فوق الحروف ..

ولم يلتحق (بولارد) بالمخابرات الألمانية ..

ولكنه عمل لحسابها ..

وكان عميلاً محل ثقة كبيرة ، على نحو لم يحدث من قبل قط ..

وخاصة عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، عام 1939م ..

فطوال عام كامل ، كانت التقارير التى يُرسلها (بولارد) ، من كل مكان بامتداد الجبهة ، تصل إلى (هملر) مباشرة ، دون المرور بأى شخص آخر ..

وفى أوائل عام 1941م ، ونظرًا لإجادته التامة للإنجليزية ، تقرَّر إرسال (بولارد) إلى (إنجلترا) ، كجاسوس فوق العادة ..

وهبط (بولارد) فى (إنجلترا) بمظلَّة ، فى التاسع عشر من فبراير 1941م ، ومعه كل الأوراق اللازمة ، لانتحال شخصية بائع أحذية أيرلندى ..

وفى (إنجلترا) ، توالت تقارير (بولارد) ، حاملة الكثير من المعلومات ، على نحو أثار دهشة (هتلر) نفسه وإعجابه ، حتى أنه قرَّر نقل (بولارد) إلى أكثر الجبهات سخونة ، فى ذلك الحين ..

إلى (روسيا) ..

والمُدهش أن (بولارد) كان يُجيد الروسية أيضًا ، وكأنه أحد أبناء (موسكو) ، كما أن شعره الأشقر ، وعينيه الزرقاويين ، وبشرته البيضاء ، المُشرَّبة بالحُمرة ، كانت ستساعده كثيرًا على الاندماج فى المجتمع الروسى ، فى تلك الفترة التى انقلبت فيها كل الأوضاع رأسًا على عقب ..

وليس أكثر للتدليل على أهمية (بولارد) من أن غواصة ألمانية قد جازفت بالاقتراب من الشواطئ الإنجليزية ، فى زمن الحرب ، حتى يُمكنها التقاط الجاسوس الخطير ، وإعادته إلى (ألمانيا) ، ومنها إلى (موسكو) ..

وفى اليوم الأوَّل من مايو 1941م ، سافر (بولارد) إلى (موسكو) ..

ولكن يبدو أن للتفوق دائمًا أعداء ..

فلقد شعر أحد رجال المخابرات الألمانية بالحيرة والشك ، إزاء ذلك الشاب ، الذى يُجيد مهارات ولغات شتى ، وينجح فى بلوغ تلك المكانة الرفيعة ، وهو لم يتجاوز الثلاثين بعد ..

لذا ، فقد راح يُراجع ملف (رودلف جلين) بمنتهى الاهتمام .. والدِّقة ..

وتوالت المفاجآت ، على نحو مُدهش ..

وعنيف ..

ومُخيف ..

فبطاقة عضوية الحزب النازى كانت مُزيفة بمهارة مُدهشة ..

و(رودلف جلين) هذا كان اسم شاب آخر ، توفى منذ عشر سنوات فى حادث سيارة على الحدود ..

أما ذلك الذى حمل الاسم ، وحاز ثقة الكبار ، فهو شخص مجهول تمامًا ..

شخص بلا هوية ..

ولأن الأمر لا يحتمل الإبطاء ، فقد تم نقل كل المعلومات فورًا إلى (هملر) ، الذى صُعق بحق ، وراجع كل شىء بنفسه مرتين على الأقل ، قبل أن يطلب مقابلة (هتلر) ، وينقل إليه الأمر كله ..

وجُنّ جنون الفوهلر ، الذى شعر وكأن الشاب قد صفعه أمام الجميع ، وطلب إعادته إلى (ألمانيا) فورًا ، على الرغم من أن التقارير ، التى كان يُرسلها من الجبهة الشرقية ، كانت لها فائدة عُظمى آنذاك ..

وتلقّى (بولارد) أمر عودته إلى (ألمانيا) ، مع معلومات تقول : إن جاسوسًا ألمانيًا آخر فى الطريق إليه ..

ولسبب ما ، شعر (بولارد) بالخطر ، على الرغم من أنه أجاب القيادة بأنه سينتظر قدوم الجاسوس الجديد ؛ ليعود فورًا إلى (برلين) ..

ووصل الجاسوس الألمانى الجديد فى موعده بالضبط ..

ولكنه لم يجد (بولارد) فى انتظاره ..

بل وجد رجال مكافحة الجاسوسية السوفيت ، الذين أطبقوا عليه ، وأوقعوا به فى لحظات ..

أما (بولارد) ، فقد اختفى تمامًا ..

لم يعد له أدنى أثر ، وكأنّما انشقت الأرض وابتلعته ..

وجُنّ جنون القيادة الألمانية أكثر وأكثر ، وأطلقت كل جواسيسها تقريبًا للبحث عن (بولارد) وإعادته ..

وبأى ثمن ..

وفى الوقت ذاته ، كان الجميع يشعرون بالحيرة ، وهم يُراجعون ملفه كله ..

فطوال فترة عمله ، لم يُرسل (بولارد) معلومة واحدة خاطئة ..

ولم يشِ بجاسوس واحد ..

باستثناء الأخير ..

فلماذا خدع الجميع إذن ؟!

لماذا ؟!

وقبل أن يتوصَّل احد للجواب ، ظهر (بولارد) فى (إنجلترا) ..

وفى هذه المرة ، كان يحمل اسم (جون بورك) ، مع كل الأوراق الرسميَّة ، التى تُثبت هويته الجديدة ..

وفى نفس الوقت ، الذى نقل فيه الجواسيس الألمان هذا ، كان (بولارد) يجلس فى مكتب المخابرات البريطانى (إم أى 6) ، ويعرض عليهم التعاون..

واتسعت عيون البريطانيين فى دهشة بالغة ، وهو يُلقى أمامهم سيلاً من المعلومات ، بالغة الأهمية والخطورة ، عن الجيش الألمانى ، والمخابرات الألمانية ، والجواسيس الألمان فى (بريطانيا) ..

ولكن كل هذا ملأ نفوس البريطانيين بالشك والقلق ، فقرروا إيداع (بولارد) سجونهم ، حتى يتم التحقُق من أمره ..

ولقد استقبل (بولارد) هذا الأمر بهدوء شديد ، ودون أن تُفارق الابتسامة شفتيه ، وطلب منهم الإسراع فى تحرياتهم ، لأنه لا يطيق حياة السجون طويلاً ..

وكعادتهم فى البحث والتدقيق ، راح البريطانيون ينبشون كل شبر فى الأرض ، بحثاً عن أية معلومة ، يُمكن أن تُرشدهم إلى (بولارد) ..

حتى جاء الأمر بمصادفة عجيبة ..

ومُدهشة ..

ففى أحد الأيام ، كان ضابط مخابرات فرنسى ، من أولئك الذين فروا بعد الاحتلال الألمانى ، وانضمّوا إلى المخابرات البريطانية ، يُراجع بعض الملفات ، عندما وقع بصره على صورة (بولارد) ، فهتف بكل دهشة الدنيا :

(شارل) ؟! ماذا يفعل هنا ؟!

سأله زميله البريطانى بنفس الدهشة :

- هل تعرف هذا الرجل ؟!

أجابه فى سرعة ، ودون أن تزايله دهشته :

- بالطبع .. إنه (شارل بيير) .. واحد من أفضل رجالنا ..

صُعق البريطانيون للجواب ، وقال أحدهم مبهوراً :

- رجالكم ؟! هل تعنى أنه كان يعمل لحسابكم ؟!

أجابه الفرنسى فى حزم :

- نعم .. (شارل) كان يعمل لحسابنا فى (ألمانيا) ، ثم انقطعت أخباره تماماً ، بعد سقوط (باريس) .

وبكل لهفتهم ودهشتهم ، هرع البريطانيون إلى زنزانة (بولارد) ، لمعرفة الحقيقة فى هذا الشأن ..

وكانت فى انتظارهم مفاجأة أكبر ..

زنزانة خالية ..

ولا أدنى أثر للجاسوس الغامض ..

وقفز جنون البريطانيين إلى ذروته ، وانطلقوا ينبشون الأرض ، بحثًا عن أى أثر للهارب ..

وفى نفس الوقت ، راح فريق منهم يدرس الموقف ، ويبحث كيف استخدم خامات بسيطة ، من زنزانته وطعامه ، لإفساد رتاج الزنزانة ، ومنع إغلاقه ..

وفى تقرير رسمى ، قرَّر الطبيب النفسى التابع لهم ، أن درجة ذكاء (بولارد) تتجاوز المتوسِّط بأربع درجات ، وهذا يجعله فى نفس عبقرية (أينشتين) ..

وكالمعتاد ، وحتى لا يُفسد ملفه ، لم يظهر أدنى أثر للجاسوس العبقرى ، ليس فى (لندن) وحدها ، ولكن فى (أوروبا) كلها ..

ومضت سنوات الحرب ، وانتصر الحلفاء عام 1945م ، وبدأت سلسلة من المحاكمات ، واستعاد الجميع أماكنهم وملفاتهم ، و ... ومعلوماتهم ..

وحصل البريطانيون على الملف الكامل للهارب ..

كانت صورته تحتل مكانها ، بابتسامة هادئة ، واثقة ، وملامح يُمكن أن تحتمل أية جنسية ممكنة ..

ملامح فرنسية ..

إنجليزية ..

ألمانية ..

وحتى روسية ..

وفى الملف ، كان يحمل اسم (شارل بيير) ، من مواليد (مارسيليا) ..

وعلى الرغم من أن (بولارد) قد اختفى تمامًا ، راح البريطانيون يدرسون ويُراجعون كل المعلومات ، التى وردت فى ملفه ..

وتلقَّوا صدمة جديدة ..

كل المعلومات زائفة ، لا أساس لها من الصحة ..

لا يوجد (شارل بيير) فى (مارسيليا) ..

أو حتى فى (باريس) ..

أو (فرنسا) كلها ..

وعاد السؤال يطرح نفسه بشدة ..

من هو (بولارد) هذا ؟!

ما حقيقته ؟!

وهويته ؟!

وجنسيته ؟!

وبينما تُثير الأسئلة قدرًا هائلاً من الغموض ، وصل تقرير عاجل ، من الولايات المتحدة الأمريكية ، يقول فى اختصار :

ـ (جون يورك) هنا .

وأنكر الأمريكيون تمامًا أن تكون هذه حقيقة ، وأبلغوا البريطانيين رسميًا أنهم لا يعلمون من (يورك) هذا ، وليس لديهم شبيه له ، فى أى من سجلاتهم وملفاتهم الرسمية ..

ولكن البريطانيين لم يُصدّقوا هذا ..

فالعميل الذى أبلغهم بأمر (بولارد) ، هو عميل من الطراز الأوّل ، ويحتل موقعًا بالغ الحساسية والخطورة ، ولا يُمكن الشك فيما يُرسله من معلومات قط ..

لذا ، فقد طلبوا منه المزيد ..

وجاء التقرير التالى ، ليضع النقاط فوق الحروف ..

لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعمل بكل جهدها ، على قدم وساق ، فى تلك الآونة لبناء جهاز المخابرات الأمريكى ، وكانت تحتاج إلى كل الكفاءات والخبرات الممكنة ؛ لذا فقد استعانت بالأسرى الألمان ، من رجال المخابرات السابقين ، وبكل من يُمكنه إفادتهم فى هذا الشأن ..

ومن كل هؤلاء ، كان (بولارد) ..

فى هذه المرة قدّم نفسه بالاسم الذى عُرف به حتى الآن ..

(أرنست بولارد) ..

ولسبب ما ، صدّق الأمريكيون كل ما قدَّمه لهم ، واعتمدوا كل أوراقه ومستنداته ، وعهدوا إليه بعملية تنشئة وتدريب الجيل الجديد من رجال المخابرات الأمريكيين ..

ولقد أدى (بولارد) مهمته هذه بمنتهى الدقَّة ..

والبراعة ..

والإتقان ..

والسرية أيضًا ..

فطوال أكثر من عشر سنوات ، لم ينكشف أمره قط ، على الرغم من أنه قد استقرّ فى (واشنطن) ، وصنع لنفسه حياة

اجتماعية جديدة ، واتصالات قوية كبيرة ، مع معظم عمالقة الاقتصاد والسياسة ..

ربمّا أدرك البريطانيون أنه هناك ..

وأنه يعمل لحساب الأمريكيين ..

وربمّا حذروهم من أمره ..

ولكن لسبب ما كان الأمريكيون يولونه كل ثقتهم ، كما لو أنه يعمل لحسابهم منذ البداية ..

أو لأنه أفرخ بالفعل جيلاً قويًا عملاقًا ، من رجال المخابرات ، كانوا نواة للمخابرات المركزية الأمريكية ، التى نالت شهرة واسعة فيما بعد ، واحتلّت مكانًا على رأس قائمة ذلك العالم السرى الغامض المثير ..

ولكن ، وكما يحدث دائمًا ، كان هناك حاسدون ..

وحاقدون ..

وغاضبون ..

ومرة أخرى ، راح البعض ينبش ملف (بولارد) ..

وطبقاً لذلك الملف ، كان (أرنست بولارد) نصف بولندى

ونصف بلجيكى ، وُلِدَ فى (يوغوسلافيا) ، ونما فى أحضان أمه البلجيكية ، بعد أن هجرها زوجها البولندى ، واختفى من (يوغوسلافيا) كلها ..

ولا أحد يدرى لماذا لم تُغادر الأم البلجيكية إلى وطنها أيضًا ؟!

ولماذا بقيت مع ابنها هناك ؟!

بل ولا أحد يدرى حتى ما إذا كانت تلك القصة حقيقية أم لا !

كل ما أدركه الجميع هو أنه من المستحيل التحقُق منها ، بعد أن فعلت الحرب ما فعلته بكل تلك المناطق ..

لذا ، فقد اضطر الحاسدون والحاقدون والناقمون على ابتلاعها ، وشُرب عشر زجاجات من الصودا لهضمها على مضض ..

حتى حدثت مُصادفة مُدهشة ، لم يتصورّها أو يتوقّعها أحد ..

ففى نهاية عام 1960م ، انشقّ خبير شفرة سوفيتى ، ولجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حاملاً كل أسرار ووثائق المُلحق العسكرى السوفيتى ..

وكانت تلك الوثائق تحوى أسماء كل عملاء (روسيا) ، فى (أوروبا) و(أمريكا) ..

ولكن بأسماء شفرية ..

ومستعارة ..

وكان على الأمريكيين والبريطانيين أن يدرسوا كل هذه الأسماء ، فى محاولة لكشف هويَّاتها الحقيقية ..

وسقط عشرات العملاء بالفعل ، فى كل أنحاء (أوروبا) ..

ومن بينهم نائب مدير جهاز المخابرات البريطانية نفسه ..

وبقى جاسوس ، يحمل الاسم المستعار (سباسكى) ..

جاسوس يُجيد الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والروسية ..

ويمتاز بقدراته الفائقة على تجاوز أية أسوار ..

وأية قيود ..

وبمراجعة تواريخ تقارير ذلك الجاسوس ، والجهات التى أُرسلت منها ، وجد الكل رابطة قوية ، تربطه بمدير قسم التدريب فى ذلك الحين (أرنست بولارد) ..

ولكن أحدًا لم يُمكنه الجزم ..

لذا ، كان لابد وأن يتمَّ البحث فى تاريخ الجاسوسية السوفيتية كله ..

واحتاج هذا إلى عام كامل ، قبل أن يندفع رئيس قسم الجاسوسية الداخلية ، إلى حجرة مدير المخابرات الأمريكية ، ويُلقى أمامه ملفًا صغيراً ، قائلاً فى انفعال جارف :

(إيفان توركنيف) .

سأله مديره فى توتر :

من هذا ؟!

شدّ الرجل قامته ، وأجاب فى صرامة :

ـ الاسم الحقيقى للزميل (أرنست بولارد) .

ولعنف دهشته ، راجع المدير الملف كله بنفسه ..

وتضاعفت دهشته ألف مرة ..

إنه هو بالفعل ..

(أرنست بولارد) ..

الملف يحمل صورته ، ويقول إنه (إيفان توركنيف) ، المولود فى (بيتروجراد) ، والذى يعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، منذ عام 1936 م ..

ولخطورة الأمر ، تم عرضه على الرئيس الأمريكى شخصيًا ،

والذى أصدر أمره بإلقاء القبض على (بولارد) ومحاكمته ، لمعرفة ما يُخفيه من أسرار ..

ووقَّع قراره هذا صباح 31 ديسمبر 1961م ..

وفى مساء اليوم نفسه ، انقضَّ فريق المخابرات الأمريكية على منزل (بولارد) ..

وكان ما كان ..

لقد حافظ الجاسوس الغامض على ملفه ناصعًا ..

واختفى دون أدنى أثر ..

وكما حدث للألمان والبريطانيين من قبلهم ، جُنَّ جنون الأمريكيين ، وراحوا يبحثون عن (بولارد) فى كل مكان ..

لا أحد يدرى كيف يُدرك ما ينتظره ..

ولا كيف ينجح فى الفرار دائمًا ، فى الوقت المناسب ..

ولكنه فعلها دائمًا ..

وطوال عام كامل ، لم يعثر الأمريكيون على أدنى أثر للرجل ..

وخلال ذلك العام ، حملت إليهم الأيام والمعلومات مفاجأة ، تفجَّر معها غضبهم ؛ ليفوق دهشتهم ألف مرة ..

لقد عمل (بولارد) بالفعل لحساب السوفيت ..

ولكن هويته كانت زائفة ..

إنه لم يكن أبدًا (إيفان توركنيف) ..

ولم يولد قط فى (بيتروجراد) ..

ولا فى أية مدينة سوفيتية أخرى ..

ومرة أخرى اختلطت الأوراق ..

وامتزجت ..

ونسفت الحيرة كل الحواجز والحقائق ..

وراحت المعلومات تتوالى ، على نحو مُذهل ..

لقد عمل (بولارد) لحساب كل أجهزة المخابرات الكبرى تقريبًا ..

وبمنتهى الإخلاص ..

والاستمتاع ..

ودون هدف واضح مُعلن ..

لم يعمل يومًا من أجل مال ..

أو مبدأ ..

أو عقيدة ..

أو حتى امرأة ..

بل إنه لم يبد قط اهتمامًا بالنساء ، باستثناء مرتين أو ثلاثة ..

وبصورة عابرة ..

كان يبدو وكأن هدفه الوحيد هو أن يغوص فى ذلك العالم ..

حتى النُخاع ..

وأن يحيا دومًا فى مُغامرة مُثيرة غامضة ..

أو أن يحفر اسمه فى كتاب تاريخ المخابرات ..

ولكن أى اسم ؟!

(رودلف جلين) ؟!

(شارل بيير) ؟!

(جون يورك) ؟!

(إيفان تورکنيف) ؟!

أم (أرنست بولارد) ؟!

لا أحد يدرى ..

حتى يومنا هذا ..

صحيح أنه تواردت أخبار عديدة ، حول ظهوره فى (موسكو) ..

و(وارسو) ..

و(برلين الشرقية) ..

وأكَّد بعضهم أنه يعمل كمستشار أمنى فى (بكين) ..

أو فى الشرق الأوسط ..

ولكن ما من خبر واحد تم تأكيده ..

وما من معلومة واحدة مؤكَّدة ..

لقد اختفى (بولارد) هذه المرة إلى الأبد ، ومحا من خلفه تاريخه كله ..

ذلك التاريخ الذى عجزت كل أجهزة المخابرات عن تأكيد حرف واحد منه ..

لا أحد يدرى أين ذهب (أرنست بولارد) ..

ولا من أين جاء ..

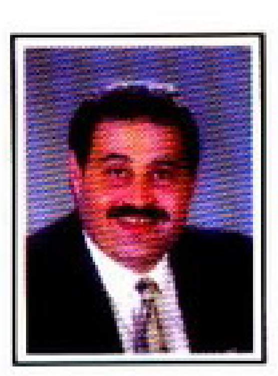
ولكن الكل يُدرك أنه سيبقى دومًا حالة فريدة بين كل جواسيس العالم ..

سيبقى جاسوسًا غامضًا مجهولاً ..

وبلا هوية ..

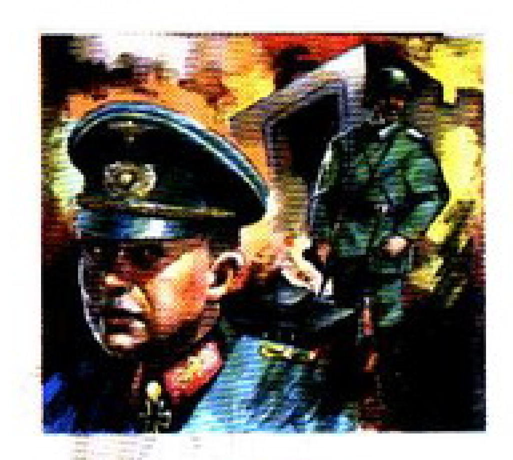
★ ★ ★

روايات مصرية للجيب
سلسلة الأعداد الخاصة
حرب الجواسيس



د. نبيل فاروق

أشهر الجواسيس



صراع العقول
الذى يتفوق
دوما على
أعتى الأسلحة
والمعدات

2



الثمن فى مصر 300 م
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



